ياسر عبد التواب

وانهار الدب الأحمر

مشاهدات زائر للاتحاد السوفييتى بعد السقوط



من أدب الرحلات

مركز الحضارة العربية

الحضارة
العربية

وانهار الدب الأحمر

ياسر عبد التواب

لوحة الغلاف : د.يحيى عبد الظاهر

الطبعة العربية الأولى : نوفمبر ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٥١٣٥

الترقيم الدولي : 7-178-291-977



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .



رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الالكترونى

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
ت : ٣٤٤٨٣٦٨

من أدب الرحلات

وانهار الدب الأحمر

مشاهدات زائر للاتحاد السوفيتي بعد السقوط

ياسر عبد التواب



الإهداء

- إليكِ أيَّتُها الحالمة ..
- إليكِ أيَّتُها النائمة ..
- إليكِ أيَّتُها المغـيَّـبة

•• إليكِ أمتي !

ياسر

المقدمة

إنه انهيار بحق ، انهيار دولة وانهيار فكر .

وسواء أسبق انـهيار الفكر انهيـار الدولة أم كان العكس ؛ المهم فى ذلك أنه قد حـدث ، وانفرط عـقد طالما كـان بادى التمـاسك وسرح أتباعـه على مـوائد اللئـام فى كل مكان ، فى ضـياع لم يشـهـد التاريخ الحـديث مـثله ، وذهبت إلى هناك ، لا متـشفياً ؛ وإنما فـى محاولة متـواضعة للقيـام بدور ما تجاه قوم طالما نسيناهـم فى غمرة أحداث حياتنا ومشاكلها .

ذهبت إلى إخـواننا المسلمين هناك أمـد يداً ضعـيفة ؛ تشـد على أيديهم مشجعة ، وتربت على أكفهم مواسية .

ولم يخل الأمر من رصد حاولت جهدى أن يكون منصفاً .

مقارنة اقتضاها الحال بيننا وبينهم ، بين ذلك الفكر وما بثه فى الناس من أنهم تروس فى آلة ، مـادة فـقط ، لا مـجـال للروح فـيـهـا ، وبـين فكرنا الإسلامى الشـامخ الذى يشبع الروح والمادة مـعاً .. من أجل ذلك سـافرت إلى هناك ..

وقد بدأت تلك الرحلة فى ٧/ ٧/ ١٩٩٤م واستغرقت حوالى شهرين .

المؤلف

أخذت أنظر إلى الساعة وقد قاربت التاسعة ، وأحث زميليَّ على الإسراع ، فقد كان موعد الإقلاع فى العاشرة من مطار الشارقة ، الذى يبعد نحو ربع ساعة بالسيارة عن مكان وجودنا ، وخلال عشر دقائق كنا على استعداد للانصراف من منزل مضيفنا أحمد زاهر الصديق القديم الذى كنت تعرفت عليه أثناء رحلة للعمرة قمنا بها فى الكلية وزارنا كثيراً فى الفندق الذى كنا نقيم فيه.. إضافة إلى أنه كان صديقاً حميماً لأخى محمود محمد أحد رفيقى تلك الاستضافة والذى تربى على نصائحه ومتابعته إياه فى المسجد على حفظ القرآن الكريم حتى أتمه .. وكان المفروض أن ننصرف قبل ساعة على الأقل حتى نصل إلى المطار فى موعد مناسب ، ولكننا فى الحقيقة أخذنا الكلام عن الذكريات وبعض القضايا الدعوية حتى صلينا الفجر ثم نمنا ثلاث ساعات ونصف واستيقظنا وتجهزنا للانطلاق .. طرقات أحمد زاهر أتتنا خفيفة على الباب ففتحنا له وبعد تحية سريعة انطلقنا عبر الفيلا الأنيقة إلى السيارة المرسيدس البيضاء التى توجهت بنا إلى المطار .. أطلقت العنان لذاكرتى تسترجع ذكريات ما سبق تلك الرحلة ، فقد وصلنا نحن الخمسة المبتعثون فى المهمة التى كلفنا بها من مطار الدوحة إلى الشارقة فى طريقنا إلى كييف عاصمة أوكرانيا ولأنه ليس هناك طائرة مباشرة من مطار الدوحة إلى كييف فقد حجزنا (ترانزيت) إلى الشارقة قبل موعد إقلاعنا بيوم لعدم وجود طائرة أخرى فى نفس يوم السفر، والذى حدث أننا سمعنا عن قانون جديد فى دول مجلس التعاون يتيح للمقيمين فى تلك الدول التنقل بينها دون تأشيرات .. ولكننا فوجئنا بعد وصولنا بأنه أدخل عليه تعديلات وعند مكتب الجوازات مددت يدى هامساً :

- تفضل الجوازات .. قلتها وقد جمعت ما في أيدى زملائى من جوازات .

- ماذا تريد ؟ قالها ضابط الجوازات .

- نريد الدخول .

- أين التأشيرة .

- أو ليس هناك قانون يسمح لنا بالدخول؛ فنحن نقيم في دولة خليجية.

- آسف فقد أدخلت تعديلات كثيرة ، والقانون الآن يخص رجال الأعمال والمهندسين والأطباء فقط .

كنا نظن على حسب علمنا السابق أن كل من يحمل شهادة جامعية يحق له الدخول دون تأشيرة فلذلك لم نحصل على تأشيرة دخول إلى الشارقة ، ومن ثم فوجئنا بالسلطات تمنعنا من الدخول ، ومع الأسف إنه لا يوجد أى فندق أو مكان مناسب يصلح لتمضية اليوم والليلة المتبقيين حتى موعد الإقلاع ، وسقط فى أيدينا أين سنقضى تلك الليلة حتى موعد الإقلاع ، اتصلت بأحمد زاهر وتركت له رسالة على جهاز التليفون حيث لم أجده ثم عدت وحاولنا نحن الثلاثة المصريين محمود محمد ومنير عبد الله وأنا أن نقنع الأخوين محمد الطيب من البحرين ، ومحمد القحطانى من قطر أن يدخلا إلى الشارقة حيث إنهما من دول مجلس التعاون ويحق لهما الدخول دون تأشيرة ، وليس هناك داع أن يشاركونا فى هذا الانتظار دون فائدة ولكنهما أصرا على الانتظار معنا .

قال محمد الطيب : إننا مجموعة واحدة ولا يحق لنا أن نتركَكم تنتظرون ونحن نتمتع بالدخول إلى الشارقة .

قال محمود : اسمع كلامى يابن الحلال الوضع هنا صعب فاخرجا أحسن .

- الطيب : مش ممكن - الدم .. الدم . الهدم .. الهدم .
- القحطاني : دعنا نذهب إلى المسئول لنكلمه عسى أن يكون هناك حلاً.
وبالفعل توجه محمد الطيب إلى الضابط المسئول .. استقبله استقبالاً طيباً وأجلسه ؛ وعرض عليه أن يشرب زجاجة مياه غازية فاعتذر وقال له :
- اعذرنى .. لا أستطيع .
- الضابط : لم لا تستطيع .. إنها مياه غازية !
- محمد : إخوانى يقفون هناك ولا يستطيعون الدخول .
- الضابط : وما السبب ؟
وحكى له ما حدث ..
- حك الضابط رأسه فى حيرة ثم قال : المشكلة أنه قد أجريت تعديلات وسكت .. وأضاف فى تردد بإمكان الشركة الناقلة أن تضمنكم لدى السلطات ، وهذا حل جيد ، ولم يستطع محمد أن يضيف جديداً .
وتكلمنا مع الشركة وكل مسئول يرفعنا إلى من هو أعلى منه حتى وصلنا إلى المدير فرفض قائلاً إنه يخشى المسئولية حيث إن البعض قد يستغل هذا الضمان ويدخل إلى البلاد ليعمل ونتحمل نحن المسئولية فى حالة عدم عودته!
قلت : سبحان الله .. ماذا يضير لو دخل من يرغب فيبحث عن عمل وإن لم يجد فسوف ينصرف وهذا ما كان يحدث آنفاً . عند ذلك الحد كنا قد استفرغنا كافة الحلول الممكنة .. وبدأنا نؤقلم أنفسنا على المبيت فى المطار .. تأملت فى المكان فإذا هو ممر طويل إلى اليمين منه أبواب لبوابات الإقلاع أو الهبوط ، وإلى اليسار منه طريقان أولهما يؤدى إلى الكافتيريا وفى الطريق إليها فوتيهات اسفنجية والطريق الثانى يؤدى إلى صالة الجوازات والتى إذا تخطيناها أصبحنا داخل البلد .. وفى الطريق إليها توجد

دورة مياه ثم مسجد صغير جداً حُوِّط بخشب ارتفاعه حوالى نصف متر وحدد به مكان القبلة ليصلى فيه من أراد .. ويوجد فى منتصف الممر الرئيسى الطويل تقريباً سوق حرة تبيع منتجات مختلفة غذائية وملابس وخمر ! والبائعات كلهن فلبينيات يرتدين زياً واحداً لونه أخضر زيتى وفوق الركبة بحوالى شبر .. وكلهن (على الفرازة) كما يقولون ، واللغة السائدة فى الكافتيريا والسوق الحرة هى الإنجليزية والعملة الدولار والأسعار نار ، وكأننا لسنا فى بلد عربى ! قال محمود : وهذا الحال مع الأسف فى أغلب بلاد المسلمين .. كما توجد كافتيريا صغيرة مقابل السوق الحرة تقدم المرطبات والسندوتشات والبيرة .. وينتشر الروس فى المكان عموماً فتجدهم يجلسون فى كل مكان وينامون على أى جنب : فهؤلاء شباب يجلسون على الأرض .. وهذا فتى وفتاة جلسا إلى جنب يأكلان من علبة محفوظة فى الخفاء قذرالأرض قليلاً .. توفير !

رجل سمين يحمل كرتونة كبيرة تنوء بها يداه .

امرأة ودعت الشباب تجلس بجوار شاب عربى يتكلم وهو ينظر إليها .

اثنان من الخليج يجلسان بكامل هيئتيهما يتأملان فيمن حولهما ؛ رجالاً ونساءً .

خليط غريب من البشر .. ويبدو أن السبب الرئيسى لوجودهم هو التسوق فى دبى حيث أسواق الجملة المشهورة فى الخليج والمناطق المحيطة.. التبرج والسفور وتكشُّف النساء فى كل مكان من حولنا .. وبدأت علاقتنا بروسيا منذ ذلك الوقت .. حيث الروسيات بعريِّهن وتكشُّفهن وما يقال عنهن من استعدادهن للقيام بمهام ثقافية !

توضأنا وصلينا وجلسنا فى المسجد نتشاور قليلاً حيث اتفقنا على أن يخرج كل من الطيب والقحطانى ليبحثا لنا عن طعام .. ثم خطر لنا أن

نسأل فى الكافتيريا الكبيرة عن الطعام فوجدنا فيها دجاجاً وسمكاً من المنتجات المحلية ففرحنا لذلك ؛ فقد كنا نخشى ألا تكون اللحوم مذبوحة على الشريعة ثم طلب كل منا ما يرغب ..

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً فى أثناء تناولنا للطعام .. إذ فوجئنا أثناء ذلك بأحمد زاهر قادم إلينا من بعيد ؛ حيث تلقى التسجيل التليفونى وسعدنا جداً فلم نكن التقينا به منذ أكثر من ست سنوات .. قمنا إليه وعانقناه .. وبادله الجميع التحيات الحارة بعد أن تعرف على من لا يعرفه منا .. وكان معه أخ آخر عرَّفنا عليه اسمه عوض .. وبعد جلسة قصيرة حاول أحمد أن يتصل بتليفونه اليدوى بعدة أشخاص فى محاولة منه لإدخالنا للشارقة ولكنه لم يجد أكثر معارفه فاتفق معنا على أن يخرج ليقضى مشواراً خاصاً ، وسوف يعاود الاتصال بمعارفه من الخارج ومن ثم يخرجنا نحن الثلاثة . ثم شجعنا نحن الأخوين الآخرين على الذهاب مع الأخ عوض ما دام الأمر قد يَنتهى بخروجنا فلا مانع من أن يذهبا من الآن ليستريحا بالإضافة إلى أن الأخ منير والأخ محمد الطيب يحتاجان إلى شراء بنطلونات وقمصان من الأسواق لاستخدامها أثناء السفر ؛ حيث نُصحنا ألا نرتدىَ الثوب العربى أثناء تواجدنا هناك لئلا يطمع فينا أحد وحيث غلاء الأسعار فى السوق الحرة أو سمها السوق الملتهبة .

بقينا نحن الثلاثة من قرابة الخامسة .. واستقر بنا الجلوس فى الصالة الأولى المطلة على الكافتيريا حيث العدد أقل وجلسنا على الكراسى الاسفنجية العريضة فهى أكثر إراحة من غيرها ، ومرت الساعات وصلينا المغرب والعشاء ثم جلسنا نقرأ قليلاً واقتربت الساعة من الثانية عشرة مساءً ويئسنا من الخروج وبدأنا نفكر كيف سننام .. حاولنا أن نزيح الكراسى بحيث تستقيم من الشكل النصف دائرى الموضوعة عليه .. فلم نفلح حيث

إنها مصممة لتبقى كذلك .. فقلنا لا مفر من النوم جلوساً وبينما نحن كذلك .. إذ جاءنا صوت أحمد زاهر من بعيد .. ثم ظهر .. وقد بدا عليه الإرهاق فقد بذل فى خلال هذه الساعات جهوداً مضنية حتى استطاع استصدار أوامر تسمح لنا بالدخول إذ كان موعد الدوام الرسمى قد انتهى منذ فترة طويلة ولم يبق له إلا الاتصال بالمسئولين فى بيوتهم أو أماكن تواجدهم .. قلت فى نفسى سبحان الله أكل هذه الجهود وذاك التعب من أجل أن ندخل إلى بلد من بلاد المسلمين ؟ لماذا يصنعون الحدود والعراقيل فى تنقلات الناس .. فى حين أن الكفار والأوروبيين ألغوا الحدود بينهم .. فلا مانع هناك من الانتقال إلى أى بلد يريد .. ثم أين ذلك من الإخوة الإسلامية التى علمنا إياها الإسلام.. ومن أن الأرض لله.. سبحانه وتعالى.. وحمدنا الله وتنفسنا الصعداء إذ خرجنا من ذلك المكان الذى أزعجنا كثيراً مجرد التفكير فى النوم فيه إذ إنه أعد للرحيل وليس للاستقرار.

المهم أخذ أصحابنا هناك منا الجوازات ضماناً لعودتنا فأعطيناهم إياها على أن نأخذها فى اليوم التالى .. ولمزيد من حرية الحركة والتخفف تركنا الحقائب الكبيرة فى حوزة شركة الطيران ، وعند خروجنا كان معى حقيبة بها بعض الكتب فأمرنى موظف الجمارك أن أفتحها ففتحتها .. فأخذ يتأمل فى الكتب - وكان من بينها كتاب ابن القيم - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة - فتأملها .. ثم قال : الحقيقة أن الكتب ممنوع دخولها إلا بإذن فقلنا ولكنها كتب دينية فقال ضاحكاً : وهذه هى المشكلة مع الأسف .

فدخلنا مرة ثانية وتركنا هذه الحقيبة ثم خرجنا إلى الطريق وقد قاربت الساعة الواحدة ليلاً .. ركبنا سيارة أحمد زاهر .. فأخذ يسرع بها .

علقت على استحياء: ما هذه السرعة يا أحمد.. نريد أن نعود إلى ذوينا!

ابتسم وهو يقول : لقد اتفقت مع أحد المطاعم على إعداد عشاء لنا

والمطعم أصلاً يغلق فى الثانية عشرة ولكننى اتصلت به من الخارج فأنا زبون عنده وهم الآن فى انتظارنا .

قال محمود : والله لقد تعشينا شكراً لك .

رد عليه : مش ممكن لازم تاكلوا تانى .

قلت : صدقنى لقد شبعنا .

ابتسم قائلاً : سيعجبكم الأكل وانت بالذات ممكن تاكل تانى .. انت تفصل منى اتنين .

ضحكت وأنا أقول لا فائدة من مجادلتك .

وبالفعل ذهبنا معه إلى المطعم .. وكانت أكلة بحرية جميلة جمبرى كبير وأرز وسلطة واستاكوزا مشوية .. وبعد أن امتلأت البطون ذهبنا إلى المنزل وجلسنا نتحدث حتى الفجر وبالرغم من أننا لم نر الشارقة إلا مساءً فإنه لم يفتنا جمال البلدة وحسن نظامها فهى تتميز بهدوئها إذا قورنت بدبى فهى ليست مشهورة بالتجارة كحالها لذا فشوارعها الفسيحة لا تزدحم بمحلات كثيرة كما أنها لها بعض الكبارى العلوية التى تخفف من الزحام - إن وجد - وتصلها بدبى فى دقائق معدودة فالحدود بين الإمارات مفتوحة بيد أن لكل إمارة شرطة خاصة وميزانيات المرافق وأرقام السيارات بها ولها كذلك بعض القوانين التى قد تختلف عن غيرها من الإمارات .

وبالإمارات عموماً نظام مرورى مميز - شبيه بالدوحة - وهو وجود دوارات وهى بناء دائرى عند التقاطع يزين أحياناً ببعض النوافير أو الأشكال الجمالية عند مفترق الطرق لتنظيم المرور عند تقاطعات الطرق بحيث تكون أولوية الاجتياز لمن سبق له دخول ذلك الدوار □

فى مطار الشارقة

وصلنا إلى مطار الشارقة ونزلنا من السيارة بسرعة .. الوقت أمامنا ضيق على موعد الإقلاع وما زال أمامنا وقت قصير لوزن الحقائب واسترداد الجوازات .. وفى خلال عشر دقائق كان مع أحمد زاهر الجوازات التى احتجزوها آنفاً ثم ذهبنا لوزن الحقائب .. أخذت أتلفت باحثاً عن محمد الطيب ومحمد القحطانى .. لعلهما وصلا وسبقانا إلى الداخل .. وقفنا أمام إشارة شركة الطيران الأوكرانية .. الموظفون غير موجودين .. ترى هل أتموا عملية الوزن ثم دخلوا .. أخذ أحمد زاهر يسأل فقالوا له إنهم لم يأتوا إلى الآن فتعجبنا إذ إنه لم يبق على موعد الإقلاع إلا حوالى نصف ساعة .. انتظرنا خمس دقائق بعدها أتى الموظفون .. ثلاثة من الهنود .. أتممنا عملية الوزن .. وفى أثنائها تقريباً وصل محمد الطيب والقحطانى فأنهينا الوزن معاً ثم أسرعنا بالصعود لأعلى حيث إن مطار الشارقة به طابقان فى السفلى استلام وتسلم الحقائب وفى العلوى الجوازات ومنها إلى صالة الترانزيت التى وصفتها آنفاً .

عند مدخل الترانزيت ودعنا أحمد زاهر وشكرناه على مجهوداته واستضافته لنا وأسرعنا ، باقى على الإقلاع أقل من عشر دقائق .. أخذنا نتسمع ونبحث بسرعة عن بوابة الصعود .. إنها البوابة رقم (٦) ذهبنا إليها مسرعين .. لا يوجد موظفون أتراهم قد أقلعوا قبلنا .. سألنا شرطية فقالت الطائرة قد تتأخر قليلاً .. لم يطمئن قلبى .. إن المكتوب على التذكرة أن الإقلاع قد حان وقته .. ولكن أين الركاب أو حتى موظفو الطائرة .. لا يوجد أحد .. بحثنا فقد تكون البوابة قد تغيرت ولكننا لم نجد على أى بوابة

أخرى لافتة باسم أو رقم الطائرة إلا رقم (٦) .

قلت : ماذا حدث ؟ أين الركاب ؟

قال محمود : لا أدرى .. ألم يصعدوا معنا .. فأين ذهبوا ؟

قال الطيب : يبدو أن الإقلاع بتوقيت الدوحة .

لم أقتنع وقلت : وهل هذا معقول ؟ صحيح أن توقيت الدوحة أقل بساعة ولكننا نقلع من الشارقة .

يبدو أن توقيت الطائرة على حسب توقيت الدوحة .. هكذا قلنا لأنفسنا.. فإن توقيت الدوحة أقل بساعة إذن فقد بقى لنا حوالى ساعة ولأقطع الملل بحثت عن تليفون دولى .. ثم اتصلت بالوالدين فى مصر ثم بالأهل فى قطر .. وأخذنا نتسمع كلما تكلمت فتاة الإذاعة فى المطار معلنة هبوط أو صعود طائرة .. وتصلنا الأصوات خافتة وغير واضحة .. إن أكثر من يجلسون خلف ميكرفونات المطارات يتكلمون بطريقة متكلفة غير واضحة ويبدو أنهم يقلدون بعضهم فى ذلك .. لكن يبدو أن هذه المذيعة ازداد عندها هذا التكلف فيبدو صوتها وكأنها استيقظت لتوها من النوم ثم تختم الكلمة بنبرة تساؤل مثيرة للابتسام .. المهم أننا لم نفهم شيئاً .. وإن كان الوضع لم يتغير فالمكان خال .. ومرت ساعة .. ساعتان .. وما زال الأمر كما هو واقتربت الساعة من الثالثة عصراً ! عرفنا عندها من الموظفين أن الطائرة ستقلع حوالى الرابعة والنصف بتوقيت الشارقة !! والوقت فى العالم الثالث ومنه الروس الآن بلا قيمة ، حيث يقاس بالكيلو لا بالثانية ؛ إذ جلسنا الساعات الطوال لا يسأل عنا أحد ولا يدلنا على بغيتنا دال .. وقريبًا من البوابة جلسنا .. وبدأ المسافرون يتوافدون أكثرهم من النساء متوسطات السن والقريبات من العقد الرابع وبدأت حملة من التوافد . الجميع يحملون كراتين وشنطاً متوسطة الحجم وثقيلة على ما يبدو من

طريقة حملها ، وفجأة فى حوالى الرابعة تنادى الناس بأن الدخول قد بدأ .. وإذا بأمواج المسافرين تتدافع بسرعة للدخول إلى صالة الإقلاع ، وسرنا على مهل ثم دخلنا إلى الصالة وجلسنا معهم ، هناك تعرفنا على شاب إيرانى مقيم فى دبى وعرفنا على نفسه على أنه تاجر مسافر إلى أوكرانيا ليشترى حديداً .. وسألنا إن كان قد سافر إلى هناك من قبل .. فأجاب أنه سافر أكثر من مرة.. فرجوناه أن يساعدنا فى حالة الوصول إن لم نجد من يستقبلنا تحت أى ظرف ..

جلست متأففاً من طول الانتظار وكان هذا التاجر بجوارى ملت عليه وسألت : لماذا تأخرت الطائرة إلى هذا الحد ؟

قال هذا شيء طبيعى ..

رفعت حاجبىَّ مندهشًا : أوليس هنا للوقت قيمة ؟

قال : يا عزيزى حاول أن تنسى ما سمعته عن تلك البلاد فهم بدائيون إلى حد كبير .

قلت وقد استحضرت ما كان يقال عن ثانى أكبر قوة فى العالم : وكيف تقول ذلك ؟

قال : إن كل شىء فى هذه البلاد على نفس حالته تقريباً من أكثر من ثلاثين سنة نفس القطارات .. الطائرات .. المبانى .. المواصلات .. الأجهزة لا يقام إلا بصيانتها فقط .

وماذا أيضاً ؟ قلتها بتعجب ..

فقال : وثانياً لأن الركاب جميعاً من تجار الشنطة .. يأتون إلى دبى أو إلى أى بلد آخر يتسوقون ويعودون محملين بالبضائع إلى بلادهم ؛ ولذا فهم يتأخرون دائماً فى عملية الوزن ..

أثار كلامه عن التجارة فضولى لا سيما والشيوعية كانت تمنعها فسألته

عنها ثم أصغيت لإجابته باهتمام ..

وضع يده على الكرسى الذى أجلس عليه ثم قال : إن اعتمادهم الأساسى على أسلوب تجارة الشنطة مجرد شراء بعض الأشيـاء المتناثرة ليبيعونها فلذا تجد عند كل محل مثلاً جهاز تلفزيون واحد إذا بيع يشترى غيره .

قلت : إذن فأنت لا تستطيع تسويق تجارتك هناك فتبيع لهم ؟

ضحك قائلاً : نعم .. فهم يخافون ألا تباع البضائع فيحذرون أن يأخذوا منها كميات .

سألته إذن فماذا تفعل فى تلك البلاد ؟ رد وكأنه يلقى سراً : أنا أشترى من هناك الحديد فقط وأسوقه بمعرفتى .

قلت : هل تجد صعوبة فى ذلك ؟

قال : الأصل أن إخراج مثل هذه المواد الخام ممنوع ولكنك سترى أن كل شىء فى هذه البلاد يمشى بالرشوة .

قلت : معقول ؟

قال : نعم ، بإمكانك أن ترشى أى مسئول وأن تفعل أى شىء وأن تتاجر فى كل شىء ما دمت تدفع فأنا مثلاً أشترى الحديد من هناك فأستخرجه من المصنع بالرشوة ثم أستخرج له شهادة منشأ بالرشوة أيضاً ، ثم أشحنه من ميناء الشحن بالرشوة وأكرر ذلك دائماً .. وكل شىء بالرشوة من أسرار الدول إلى البلوتونيوم وهناك عصابات دولية تمارس أعمالاً رهيبة ..

سرحت بخيالى .. إن مجتمعاً يقوم على الرشوة لن يكون مجتمعاً هادئاً أو مستقراً لأن مثل هذه الأفعال - وبغض النظر عن كونهم كفاراً وأن هذا شيئاً مجرماً - تؤدى إلى خلل فى المجتمعات وظلم للشرفاء الذين لا يقبلون الرشوة .

سألته لكن من أين يحضر التجـار هذه الأموال التى يشترون بها كل هذه البضائع مع أن المعروف أن هذه البلاد فقيرة وخارجة لتوها من الشيوعية ؟

قال : إن كثيراً منهم يقترضون أو يتساهمون مع غيرهم ويسافر أحدهم للتسوق وكذلك فإن أسلوبهم فى الربح غريب جداً فهم إذا اشتروا شيئاً بدولار مثلاً فإنهم يريدون بيعه بخمس أو ست دولارات .. وهذا نوع من عدم الفهم للتجارة إضافة إلى أنه يرفع الأسعار بشكل كبير .

ساد الصمت لحظات فاستأذنت وذهبت إلى دورة المياه فإذا بأحد الروس يسبقنى ليفتح باب الحمام ويغلقه أمام وجهى بجفاء .. عدت مرة أخرى وإذا بالساعة تقترب من الرابعة والنصف جلست على أحد الكراسى حيث جلس محمد الطيب مكانى السابق ليتجاذب أطراف الحديث مع التاجر الإيرانى .. نادى موظفو الطائرة على الركاب للخروج من هذه الصالة ليركبوا الحافلة التى تقلهم إلى الطائرة وتعجبت من هذا الصنيع وغيره فالمعتاد أن ينادى على الدخول للقاعة أو على الاستعداد للإقلاع فى الميكرفون .. ولكن يبدو أن سلطات المطار تعامل هذه الطائرة وأمثالها معاملة خاصة .. أسرع الركاب كعادتهم بالخروج من تلك الصالة .. وتزاحموا كذلك على النزول إلى مكان الحافلة حتى إذا وصلنا نحن لم نبق إلا ومجموعة أخرى من الركاب فانتظرنا حافلة ثانية .. وطال بنا الانتظار حوالى ربع ساعة حتى جاءنا أتوبيس صغير ركبناه جميعاً .. وانطلق بنا يمشى لمسافة طويلة حتى وصلنا إلى الطائرة "إير أكراينا" ❑

الفرن

أخذت أتأمل فى الطائرة من الخارج أثناء صعودى على سلمها طائرة بيضاء اللون متوسطة الحجم لها جناحان قصيران ومندمجان مع جسم الطائرة على الشكل الذى يطلقون عليه فى الرياضيات "القطع الناقص" .. صعدنا لنتعطل قليلاً عند مدخل الطائرة بسبب التكدس الحادث من تجمع الركاب وركاب حافلتنا الصغيرة حيث اعتدنا من ركاب تلك الطائرة على التزاحم وسرعة التحرك ولا أدرى ما السبب إذن خطوات قليلة إلى داخل الطائرة وعرفت بعدها سبب هذا التزاحم وتلك العجلة للدخول إلى الطائرة فقد استقبلنا طاقم الطائرة على بابها بشىء من اللامبالاة وسلمناهم بطاقات الصعود ثم دخلنا .. ونظرنا إلى أرقام الجلوس فلم نجد أرقاماً على التذاكر تشير إلى أماكن جلوسنا . وهذا شىء يحدث فى شركات الطيران غير الجيدة لا حرج إذن أن نبحث عن أى مكان خال لنجلس فيه الطريق مزدحم لا أدرى لماذا لا يجلس الركاب على كراسيهم ؟ بعد محاولات استطعنا التحرك عبر الطرقة الوحيدة الفاصلة بين الكراسى الستة الموزعة على جانبى الطائرة .. الكراسى كلها مشغولة إما بالركاب .. وإما بأمتعتهم .. وهكذا ظللنا نسير إلى قرابة نهاية الطائرة والركاب بين وقوف وجلوس وأكثرهم يضع كراتين التلفاز والفيديو والأطقم الصينى والشاى على الكراسى المخصصة للركاب .. وبدا لى وكأننا لسنا فى طائرة وإنما فى حافلة من الدرجة الثالثة من تلك التى تستخدم لنقل الركاب فى قرى بلادنا، خروف بجانبك وزلعة مش فوق رأسك ! وطفل يظنك أباه يمسك بيدك وقد أزعجه الذباب وقوفاً على أنفه

قريب من نهاية الطائرة نحو عشرة صفوف من الكراسى لا تمتلئ إلا بالبضائع وقد عمد أصحابها إلى تحريك ظهور الكراسى بحيث يتمكنوا من وضع البضائع عليها .. وكذلك لمنع من تسول له نفسه بالجلوس .. لمحت التاجر الإيرانى يجلس قريباً منى فابتسم لى وهو يهز كتفيه وكأنه يقول لى هل صدقتنى الآن .. فسألته أليس لنا مكان .. قال بإمكانك أن تكلم المضيفة وضحك .

بالطائرة مضيفتان قاربتا الخمسين من العمر إلا قليلاً ومضيف شاب فى الثلاثين تقريباً يبدو على ملابسهم أن حالتهم المادية غير متيسرة وكنت قديماً قد تعلمت من كتاب "الكشفية للفتيان" لـ(بادن باول) مؤسس الحركة الكشفية أن أكثر ما يميز المستوى المادى للناس هو الأحذية وإلى حد كبير وجدت أن هذه القاعدة صادقة ، نظرت إلى أحذية الطاقم فوجدت المرأتين ترتديان حذائين قديمين لم تلمعانه منذ فترة فانعكس ذلك على اللون الأسود لهما وكذلك على الأطراف المدببة حيث تحولت إلى اللون الأبيض تقريباً . أما المضيف فأظنه كان يرتدى حذاءً بنياً لا يتناسب مع البنطلون الكحلى والقميص الأبيض الذى يتميز بهما الطاقم .. حاولنا أن نتكلم معهم بالإنجليزية فوجئنا بهم لا يعرفونها .. فأشرنا إليهم بالتذاكر .. نريد الجلوس .. وأظنهم قد فهموا ما نريد فأشاروا لنا بالانتظار .. وبدأوا يستسمحون الركاب أن يأخذ هذا حقيبته وأن يحرك ذاك بضاعته .. أعجب طاقم طائرة رأيته فى حياتى .. إنهم يتعاملون مع الركاب وكأنه ليس لهم عليهم أى سلطان أو كأنهم ليسوا موظفين فى ذلك المكان .. بصعوبة أمكنهم تهيئة أماكن خمسة .. اثنان متجاوران فى الصالة الأولى التى يفترض أنها مقاعد الدرجة الأولى ! .. وثلاثة أخرى فى الصف الأول من الدرجة الثانية والمجاور للطرقة التى تفصل بين الدرجتين .. استقر بنا

الجلوس على الكراسى فجلست أنا والقحطانى على الكراسى الأخيرة وجلس محمود والطيب على الكراسى الأولى ، سرعان ما اكتشفت السبب فى شعور بالضيق كان يراودنى منذ الدخول حيث كان انشغالنا بالبحث عن المكان صارفاً لتفكيرنا عن حقيقة الوضع بالطائرة إذ سرعان ما شعرنا أنه ليس بالطائرة أى مكيف .. ليس فيها إلا مراوح تضخ هواءً خالياً من البرودة من فوق رأس كل راكب .. وبدأ العرق يتصبب .. الوقت يمر دون إقلاع ونحن نتكلم معاً .. لماذا لا تصعد الطائرة .. بدأنا نتململ بحثت عن شىء أستخدمه كمروحة أخفف عن نفسى الشعور بالحر فى مكان مغلق ملىء بالناس فى يوم حار من أيام شهر يوليو بالشارقة .. فوجدت جريدة عربية استخدمتها فى التهوية علىَّ وعلى محمد ومنير حيث أجلس فى الوسط .. وفجأة .. توقفت محركات الطائرة عن الحركة وانطفأت الأنوار.. الحر يحيط بنا من كل مكان .. انقلبت الطائرة إلى فرن مغلق .. وجميع الركاب ونحن طبعاً فى حالة يرثى لها .. وفى خلال حوالى خمس دقائق من بداية هذا الحر أصبح أغلب الركاب وقوفاً .. الوجوه قد احمرت وخلع أغلب الرجال الروس قمصانهم العلوية وأصبحت رائحة العرق تعلو من كل مكان ، نظرتُ إلى منير فإذا بالعرق يلجمه من رأسه إلى قدميه فقد كان سمين الجسم مثلى ولكنه غزير العرق عنى فملابسه تقريبًا قد ابتلت من العرق .. ووقفنا أنا وهو وجلس محمد .. وقد تجمع بعض الركاب حول المضيفتين فى الطرقة .. ولفت نظرى فتاة عمرها حوالى ١٠ سنوات وأمها تقف أمامها وقد احمر وجهاهما من العرق والحر .. والفتاة يكاد نفسها يضيق . وأمها تهوى عليها بمنديل فى يدها .. تذكرت فى ذلك الموقف موقف القيامة والناس قد انشغل كل منهم بحاله .. كما سينشغلون كذلك يوم القيامة حيث لا يستطيع أحد يوم القيامة أن يخفف عن أحد أو يشاركه

ضيقه .. ومرت دقائق أخرى كأنها الدهر .. وضاقت الأنفاس .. وقلت لنفسى ما هذه الرحلة الشاقة وتمنيت لحظتها أن أعود من حيث أتيت.. كما يتمنى الكافر أن يصرف من موقف القيامة ولو إلى النار .. وجاء اليسر بعد العسر .. فبعد ذلك بلحظات عادت للطائرة روحها وعادت تزمجر من جديد .. وعاد النور وهواء المروحة مرة أخرى وبذا توقف تدهور الحال .. وإن لم يكن بالطبع قد انتهى الحر .. هذا أفضل على أى حال .. لم يطل انتظارنا فقد بدأ القبطان تعليماته .. بالروسية فقط ولكننا فهمنا أنهم سينطلقون .. وبالفعل بدأت الطائرة فى الحركة ..

كنت أظن - حسب ما كان مكتوباً فى التذكرة - أن موعد الهبوط سيكون بعد ساعتين ونصف .. وبصعوبة تفاهمت مع المضيف بالإنجليزية الضعيفة لديه على أن موعد الوصول بعد أربع ساعات ونصف .. فلم إذن يكتبون ذلك ! سؤال سألته لنفسى ولم أجد منها إلا التعجب فهذا حال العالم الثالث كله تمام ! .. وقد بدأت التعود على هذه الأمور .

بعد حوالى نصف ساعة من الإقلاع بدأت الأمور تستقر فطبقات الجو العليا أبرد من السفلى .. فضلاً عن اقترابنا من وقت المغرب حيث الجو أبرد كذلك .. لاحظت أن إحدى المضيفات تغلق الستارة التى أمامى والتى تفصل بين الطرقتين وخمنت أنها تريد أن تغير ملابسها المبتلة بالعرق إلى حد التصاقها بجسدها .. وقد كان بالفعل !

بعد حوالى ساعة انتقل منير إلى الكرسى المقابل لكرسيه على الطرف الثانى من الطرقة ، وبقيت أنا والقحطانى مكاننا ، وبدأوا فى توزيع وجبة الطعام وسألنا عن مكان إعدادها فعرفنا أنها تعد فى الشارقة فأكلنا منها وبعد انتهائنا وأثناء جمع بقاياه جاءت المضيفة أمامى وأخذت تشير إلى بقايا طعامى وتتحدث معى بالروسية بلهجة آمرة لم تعجبنى .. وإن كنت

فـهمت منهـا أنها تريدنى أن أدخل الأطـباق الصـغيـرة داخل الكرتونة التى قـدموا لنا فـيـها الطعـام .. ولا أدرى كـيـف يعاملون الـركاب هذه المعـاملة السيئة.. ففى أغلب الطائرات يتم جـمع بقايا الطعام بكل هدوء .. فعلتُ ما تريد الجفـاء .. وانشغلت بالـكلام مع محمـد القحطانى .. وكـان ينظر من الشبـاك على السحـاب فأخذنـا نتأمله سوياً ونعـلق عليه .. فقـد كان يشـبه الجبـال البيضـاء حتى لقد شككنا أحـياناً أن بعض الجبـال من الطول بحيث تغطى قممها الثلوج .. وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حول معلوماته عن الرحلة وبدا لى أنه قارئ جيد فى الجغـرافيا والتاريخ ؛ حيث أخذ يصف لى مـسار الرحلة وأننـا الآن تقريبـاً فوق تـركيـا .. وأخبـرنى أن أوكـرانيا بهـا زراعات كـثيرة وأنها تعـتبر سلة غذاء الاتحـاد السوفيتى السـابق .. وأخرج بوصلة وحاول تحديد مسار الرحلة والقبلة كذلك وبينما نحن كذلك إذ جاء المضيف فجلس بالكرسى المجاور لى ولـم تمض لحظات حتى راح فى سبات عميق .. !! ويغير جنبه من حـين لآخر فينظر إلى الساعة أو إلى الركاب ثم يعـود إلى النوم .. وبعـد قليل حـدث مـا هو أعـجب فـقد جـاءت إحـدى المضيـفات وأيقظت راكباً كـان يجلس خلف منير وتبادلا الحـديث قليلاً ثم قـام الرجل لهـا فجلست مكانـه ثم نامت هى الأخرى ، وعـجبت من هذا الطاقم المضحك ولا سيما أن محمود حدثنى أنه طلب من إحداهن كوباً من الماء فأخـذت تكلمه فى حنق ففـهم أنها تقول له أنهـا سوف تأكل الآن (هو أنا فاضـية لكم .. عـايزة آكل) .. وبالفعل أحـضرت طعامـاً وجلست تأكل على أحد المقـاعد ثم بعـد أن نسى محمـود الموضوع ومـرت حوالى نصف ساعة جـاءه المضيف بكوب من الماء .. فالطاقم يبـدو أنه يرى نفسه متـبرعاً بالخدمـة .. إذ أنهم لا ريب يتاجـرون أيضاً كـغيـرهم على متن هذه الطائرة فلماذا الإزعاج إذن وكلنا سواء .. !

حاولت أن أنام فلم أستطع فأغمضت عينى فى استرخاء حتى اقتربت الساعة من الثامنة والنصف فأخذت أنظر أنا ومحمد من الشباك .. ولم يكن الوقت قد آذن بالغروب وتحدثنا أن الشمس فى هذه البلاد تغرب فى وقت متأخر عرفنا بعد ذلك أنها تغرب فى حدود العاشرة .. ولك أن تتخيل أن آذان المغرب فى العاشرة حين يغط أكثر الناس فى بلادنا العربية فى النوم ، وبعد أن نظرنا إلى صحراء لا ندرى تابعة لأى بلد وجدنا اللون الأخضر يكسو كل مكان .. أشجار شاهقة كبيرة متشابكة .. ومجارى مائية فعرفنا أننا وصلنا تقريباً إلى حدود أوكرانيا وأنه لم يبق على الهبوط إلا القليل ، ولاحظت أن أكثر الخضار هو ناتج من تلك الأشجار فمعنى ذلك أن تلك الغابات غير مستغلة فى الزراعة وأنها لو استغلت فى زراعة الخضر والفاكهة لأثمرت على البلاد خيراً كثيراً بالإضافة إلى معلوماتى أن هذه الأشجار لا تصلح فى أغلبها للاستغلال فى تصنيع خام الخشب فليس منها كثير فائدة لا سيما أنه فى أثناء فترة الشتاء الممتدة لأكثر من ستة أشهر فى هذه البلاد تسقط الأوراق ولا يبقى من الشجر إلا عوده الذى يحمل ، ويحفظ الله الحياة للنبات بتراكم الثلج على الأرض وعلى جذور الشجر فيعمل كطبقة عازلة بينها وبين الجو الذى هو أكثر برودة من الثلج .

أتانى صوت المكبر داخل الطائرة بالروسية فقط أيضاً ! ففهمنا أن ذلك إيذاناً بالهبوط فاستيقظ المضيفون النيام ويا ترى هل نام السائق أيضاً ؟ ربما ! .. وربطت حزام المقعد لنفسى حيث بالطبع لن يهتم أحد بتذكيرى بربطه كما يحدث فى جميع المطارات ❑

كييف

هبطت الطائرة بسلام .. ونزلنا إلى المدرج .. الجو صيفى يميل إلى الربيع .. الركاب ينزلون فى هدوء .. أخذت أتلفت أثناء نزولى السلم هل ينتظرنا أحد . فقد كان المتفق عليه بين وزارة الأوقاف القطرية التى بعثتنا وبين هيئة الإغاثة الإسلامية التابعة لرابطة العالم الإسلامى بالسعودية أن هناك مندوباً سينتظرنا .. ليعمل كدليل لنا فى تلك البلاد التى لا تتحدث إلا الروسية .. ولما لم أجد أحداً له ملامح عربية أو يرتدى ملابس إسلامية أو يظهر عليه شيء يلفت نظرنا إليه ؛ قلت لعلنا نجدهم داخل صالة الاستقبال.. وتوجهنا مباشرة إلى الحافلة التى تنقل الركاب .. وكان شكلها غريبًا ، فهى حافة عادية ولكن لها رأس سيارة نقل وقد ركب الصندوق الذى يحمل فيه الركاب ولونه أصفر وشكله كأنه أتوبيس عادى على شاسيه لسيارة نقل وظلت كابينة السائق هى نفس كابينة السيارة النقل فأثمر ذلك الكائن والذى عرفت بعد ذلك بالتجربة أنه هو المعتمد لنقل الركاب فى كل مطارات الاتحاد السوفيتى السابق .. ركبنا جميعاً وحمدنا الله سبحانه وتعالى على السلامة .. وانطلقت بنا مع بقية الركاب تلك الحافلة حتى وصلنا إلى مدخل الاستقبال .

تجمعنا ثم دخلنا من الباب .. صالة واسعة يبدو أنهم يقومون فيها بترميمات .. وتذكرت ما قاله التاجر الإيرانى إن كل شيء تقريباً على حاله منذ ثلاثين سنة لا يوجد فى مكان الاستقبال إلا حوالى عشرة كراسى من الحديد موصولة ببعضها من مقاعدها بقضيب من الحديد .. الكراسى لونها لبنى وقد تقشرت مع الاستخدام فظهر صدأ الحديد الذى هو أسفل ذلك

اللون ، أما المدخل فضيق نسبياً وهو عبارة عن حوالى ثلاثة أبواب عرض كل باب متر تقريباً . مصنوع من الخشب ومركب فى الخشب زجاج كما هو الحال فى أبواب البلكونات داخل البيوت !

الأرض ليست مغطاة بشىء فلا يوجد موكيت أو مشمع مثلاً ، وإنما يوجد بلاط من نوع قديم تآكل من طول الاستخدام .. بدا لى المكان وكأننا فى محطة قطار لقرية صغيرة ، عبر الصالة وفى الطرف المقابل للمدخل يوجد شباك يجلس خلفه رجل . وجدنا أن المغتربين كالتاجر الإيرانى وغيره ذهبوا إليه فتوجهنا إلى هناك حيث لم نجد من يستقبلنا وأخذنا من هناك أوراقًا ملأناها حول معلومات تتعلق بنا ، وسبب دخولنا البلاد .. فملأناها بالإنجليزية .. ثم توجهنا إلى شباك آخر لندفع بالدولار ثمن دخولنا كسياح فتوجهت إلى الشباك وأنا أحمل جوازات سفرنا جميعاً .. وكان قد سبقنى شخصان كويتيان يبدو من تصرفاتهما أنهما يتوجهان إلى هذه البلاد لأول مرة وأنهما لا يحسنان الكلام بأى لغة إلا العربية .

فى ممر ضيق يفصل الواقف أمام الشباك عن الحائط خلفه حوالى متر واحد .. وقفنا أمام الشباك وقرأت للكويتيين تسعيرة الإقامة المكتوبة .. أسبوع إقامة بحوالى خمسة عشر دولاراً وشهر إقامة بخمسين دولاراً فاختارا أسبوعاً واخترت لنا شهراً حسب ما هو متفق عليه مع هيئة الإغاثة.. المرأة الواقفة خلف الشباك لا تتكلم الإنجليزية على الإطلاق بخلاف الرجل الآخر الذى أخذنا منه الأوراق حيث يتكلم الأخير ببعض كلمات منها ، وعجبت كيف يضعون شخصاً ليستقبل السياح لا يتكلم بأى لغة أخرى .! بعد أن أنهى الكويتيان الإجراءات أعطيتها الجوازات وعدتها خمسة جوازات وأشرت لها شهر ثلاثين يوماً . ثلاث إشارات بأصابع يدى العشرة فأشارات خمس مرات بأصابعها العشرة وضحكت فقد كنت قرأت

التسعيرة على الزجاج ، وبدأت تكتب ثم أعطيتها عبر الفتحة الضيقة جداً من الزجاج ثلاثمائة دولار على حسب خمسين دولاراً لكل منا وبقيت خمسون تعيدها إلى فأشارت إلى وهى تعطينى الجوازات بأن كل شىء تمام ، فدققت لها على الزجاج مشيراً إلى الفلوس . فأعطتنى الخمسين الباقية .. وإن كنت لا أعرف هل تعمدت استبقاءها أم لا .

هذه المرة ذهبنا جميعاً إلى الجوازات وهو شباك آخر قدمنا للضابط الجوازات فأخذ يتأمل كلاً منا على حده ثم ختمها وتوقف طويلاً أمام صورة منير حيث قد امتلأ جسمه قليلاً عن الصورة التى فى الجواز وفى النهاية ختم له بعد أن بدا القلق على وجه منير

دخلنا إلى صالة أخرى .. خالية من الركاب الذين سبقونا وأنهوا معاملاتهم تقريباً فوجدنا أنه مطلوب منا أن نملأ أوراقاً أخرى وبعد أن أخذناها وجدنا شاباً ذا ملامح عربية تأمل فينا ثم شرع فى السلام علينا واحداً تلو الآخر ، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة : السلام عليكم ، أخوكم عماد عبد الرحيم .. أعمل فى هيئة الإغاثة وأكملنا تعارفنا عليه .. يتكلم اللهجة الشامية .. وفى أثنائها يبدو بعض الكلام المصرى .. أخذ منا الجوازات وقام بنفسه بتعبئتها بالروسية .. ثم توجه معنا إلى السير الذى يضعون عنده شنط اليد .. السير قديم مهترئ ولكنه يعمل .. ويجلس عنده شخص ذو ملابس قديمة .. الصالة تنقصها الإضاءة لا سيما والشمس قاربت على المغيب .. ونسيت أن أذكر أننا جلسنا نملأ الأوراق على دكك خشبية ، وأننا أخذنا الأوراق من مكتبة بها رفوف ضيقة على قدر الورقة أشبه بتلك المخصصة للأحذية فى بعض المساجد

ينتشر فى المكان عجائز يقمن بتنظيف المكان (وتعجبت أفى هذه السن !).

خرجنا من تلك الصالة لنمر إلى مربعات خشبية طلب منا عندها

تسجيل الأموال التى لدينا فسجلناها أمام إحدى الضابطات .. ولاحظت أنها تتفاهم مع عماد بلهجة فيها شدة .. وأنه هو الآخر يرد بنفس الأسلوب فظننت أن هناك مشكلة أو تساؤل فأسررت بذلك إلى عماد فقال لى : ليست هناك مشكلة .. ولكنهم اعتادوا هنا على هذا الأسلوب فى الكلام ثم أضاف : والأوكران نسبة إلى سكان أوكرانيا - أشد جفاءً من الروس (أى سكان موسكو) لأن طباعهم كطباع القرويين أو البدو .

أنهينا ذلك الإجراء ثم خرجنا من المكان .. وعلى بعد خطوات منه تعرفنا على آخرين كانا مع عماد أحدهما يعمل فى الهيئة أيضاً وهو كردى هارب من الاضطهاد ومذابح الأكراد فى العراق اسمه دارا محمود طه والآخر مصرى من الإسكندرية يعمل طالباً فى كييف بجامعة الهندسة حيث إن للهندسة هنا جامعة بها كليات .. المدنية .. الميكانيكية .. الخ ، واسم الشاب عامر زهران وهو صديق لعماد .. الذى تبين لى أنه مصرى ولكنه يعيش مع أصدقاء له لبنانيين فتأثر بلغتهم .. ذكرنى شكل عامر بخال لى اسمه محمود فهو يشبهه فى ملامح وجهه كثيراً . لذا فقد استرحت إليه وأهاج ذلك فى وجدانى الشوق والحنين للإسكندرية بلدى الحبيب .

أما دارا فهو يشبه إلى حد كبير (على ولاياتى) وزير خارجية إيران السابق . بعد تعارف سريع خرجنا عبر صالة أخيرة إلى الشارع وقد لفت نظرى أشخاص يجلسون قريباً من الباب معهم كلب كبير جداً من نوع (دبرمان) الطويل ويضع صاحبه على فمه كمامة حديدية .. أظهرت تعجبى من حجم الكلب ولماذا يقف به فى الطريق فأجاب عامر: المعتاد هنا أن يكون لكل بيت كلب وتجدهم ينتشرون بهم خاصة فى الحدائق وقت العصر.

خرجنا من المطار .. أين الحقائب ؟ قالوا سنذهب لنأخذها من مكان

آخر حددوه لنا .. السيارات واقفة أمام المطار .. لاحظت أن هناك نوعين من السيارات .. إما سيارات روسية الصنع وقديمة فى العادة ، وإما سيارات أوروبية فاخرة مرسيدس وأوبل وبى إم دبليو بما يدل لأول وهلة على أن هناك صنفين من الدخول لمواطنى البلد ولا توجد طبقة وسطى وتلك كارثة.

اتفق عماد مع سيارتين لتقلانا نحن الثمانية مع أدواتنا : سيارة فولجا روسية - وهى سيارة تشبه فى حجمها السيارات الأمريكية لكنها أصغر قليلاً - وسيارة أوبل حديثة نوعاً ما .. واتفق عماد على أن يعطى عشرين دولاراً نظير نقلنا إلى الفندق أليس كثيراً أن ندفع أربعين دولاراً نظير نقلنا إلى الفندق فى بلاد سمعنا أنها رخيصة للغاية .. ركبنا جميعاً .. وركبت أنا ومحمود محمد وعامر فى السيارة الأوبل وانطلقت بنا السيارتان طريق جميل يحفه الشجر ثم انحرفنا بالسيارتين إلى طريق جانبى ضيق مشينا فيه قليلاً ثم توقفنا أمام منطقة مغلقة يفترض أن الشنط قد وصلت إليها .. ذهب عماد والذين معه فى السيارة للسؤال عن المكان وبقينا نحن فى مكاننا.. الجو مائل للحرارة .. ومليء بالهوام الطائرة .. هاموش وناموس .. لم أطق الجلوس فى السيارة فأشرت على الإخوة بالوقوف ووقفنا بجانبها نتحدث.. وكالعادة دائماً بدأت بسؤال محدثى :

- ما هى طبيعة دراستك يا عامر ؟

بدا الاهتمام على وجهه وهو يقول :

- دراستى للهندسة المدنية ؛ فكليتنا مختصة بذلك فقط فهى كلية الهندسة المدنية .. وقال :

- إنهم لا يتركون عموماً فرصة للطالب ليكون فارغاً فنحن على سبيل المثال قد انتهينا من الدراسة قبل قليل وهم الآن يطلبون منا نشاطات عملية. سألته:

- وما طبيعة ذلك النشاط ؟ قال :

– يخترعون لنا أى شيء فمثلاً يطلبون منا القيام بترميم وصباغة مبنى الجامعة سألته :

– هل الدراسة سهلة أم صعبة ؟ قال :

– عادية .. وعموماً نحن ندرس سنة تمهيدية لتعلم اللغة ثم أربع سنوات للدراسة التخصصية وسنتين للماجستير . قلت :

– و لماذا تدرسون الماجستير ألا يمكن الاكتفاء بالبكالوريوس ؟ فقال :

– ولكنهم في مصر يعادلون الماجستير بالبكالوريوس . فسألته عن مصاريف الدراسة ؟ قال :

– أما عن نفسى فأنا مرشح لمنحة عن طريق منظمة التضامن الأفروآسيوى .. وقبل سقوط الاتحاد السوفيتى كان يخرج دعمه لمنظمة اليونسكو عن طريق فتح المجال أمام المنح الدراسية لدول مختلفة .. وأضاف باستهزاء وكأنه يتذكر الأيام الخوالى للاتحاد السوفيتى :

– نحن لا يمكن أن نأخذ ثمناً للعلم .. قلت :

– والآن ؟ .. قال :

– تغير كل ذلك بعد السقوط .. فطبعاً هم الآن يأخذون مصاريف دراسية تختلف من جامعة لأخرى ومن دراسة لأخرى وكذلك من بلد لآخر .. ومع الأسف مع تغير أحوال المعيشة يمكن الآن عن طريق الرشوة التحكم فى أشياء كثيرة . قلت :

– كيف ؟ .. قال :

– يمكن للطالب أن يدفع رشوة لئلا يحضر الدراسة ، بل وصل الأمر إلى تغيير نتائج الامتحانات .. سألته :

– لماذا أتيت إلى هنا مع أنه كان بإمكانك أن تدرس فى مصر دون أن تعانى مشقة الغربة ؟ قال :

- لأنى لم يكن لدى المجموع الذى يمكننى من دخول كلية الهندسة حيث أرغب . قلت :

- وماذا حدث إذن ؟ قال :

- قدمت فى كلية التجارة وبعد انتهاء السنة الأولى جاءنى القبول من المنظمة فجئت .. قلت :

- وأضعت هذه السنة ؟ قال :

- وماذا أفعل ؟ ..

طالت الوقفة وانضم بعض النحل إلى مظاهرة الناموس والهاموش المحيط بنا ، قلت متأففاً : لعل الحشرات بهذا الحجم وهذه الكثرة فى كل كييف.. ابتسم قائلاً :

توجد حشرات ولكن قليلة ويبدو لأننا فى منطقة نائية ومليئة بالمستنقعات لذا يكثر فيها الناموس .. وانشغل بقتل نحلة كانت تحوم حولنا كثيراً .. لمحت من بعيد سيارة "زل" من نفس نوع السيارات النقل المستخدمة لقوات الأمن المركزى فى مصر .. ونفس اللون الزيتى .. قلت ضاحكاً : وهل جاء الأمن المركزى إلى هنا أيضاً ؟ .. فعلق مبتسماً وقال :

إنها ليست سياراتٍ حكومية فقد تكون مملوكة لبعض الأفراد .. تململت من الوقوف .. ثم قلت له :

ما رأيك أن نتمشى باتجاه الإخوة لعلنا نساعدهم فقد تأخروا علينا ، فقال محذراً :

لا يمكننا أن نترك السائق مع شنط اليد الخاصة بكم فقد يأخذها ويمشى وتذكرت كافة التحذيرات .. سكتُ قليلاً وتأملتُ فى المكان من حولنا ثم علقت لمحمود على منظمة التضامن الأفرآسيوى قائلاً :

يا أخى لا أعرف عن هذه المنظمات شيئاً فهى أسماء نسمع عنها ولا

ندرى ما حقيقة نشاطاتها ؟ قال عامر :

لقد أخبرنى عنها أحد أقربائى .. وسنة ما أتيت كانت هناك عشر منح لم يخرج من مصر وقتها إلا أنا وطالب آخر .

وهلَّ علينا عماد مقبلاً من بعيد وهو يشير إلينا لنتحرك إليه فركبنا السيارة وأدركناه فى الطريق وركب معنا بجوار عامر ، ومشينا بالسيارة إلى مسافة بعيدة وقال عماد : إنهم يضعون الشنط فى قرية للبضائع على أساس أن القادمين كلهم تجار ولابد من التأكد من امتلاك كل شخص لما يأخذه .

مالت الشمس للمغيب .. عند اقتراب الساعة من العاشرة والنصف بتوقيت كييف ولم نزل وقوفاً ننتظر أن يأتى دورنا للدخول والبحث عن الشنط .. بدأت أشعر بالتعب وأردت الذهاب للحمام فأسررت بذلك لعماد فسأل وأرشدنى إلى مكانه .. ثم أعطانى زجاجة فارغة لأحتفظ ببعض الماء لاستخدامه بالداخل فهى خالية من الماء .. قلت فى نفسى يبدو أن هناك فروقاً كثيرة بين بلادنا وتلك البلاد .. حمام قديم كقدم المكان ، صحبنى عماد إلى هناك وأدخلنى ثم وقف لينتظرنى بالخارج .

وعندما خرجت وقفت مع عماد لحظات أتأمل فى حوض للزهور أخاذ الجمال أمام مكان الحمام وأنا أقارن وأتعجب من التناقض بين جمال مخلوقات الله تعالى وقذارة بنى الإنسان .. داخل الحمامات لا سيما إن كان ذلك الإنسان ملحداً أو شيوعياً سابقاً !

سألت عماد ونحن فى طريق العودة : هل تعمل فى الهيئة منذ فترة طويلة فقال :

إننى فى الأصل أدرس الهندسة بكلية النسيج .. وكثير من الهيئات هنا تستفيد من وجود العرب الدارسين للعمل معها حيث يتقنون اللغة ويقيمون فعلاً بالبلاد بالإضافة إلى أن تشغيلهم سيكون له فائدة فى دعوتهم ولا

يخلو الأمر من فائدة اقتصادية حيث لا يعطونهم مثل من يحضرونه من الخارج ..

علقت قائلاً :

كل شيء في هذه البلاد يعتمد على الطوابير ؟

دخلنا وبحثنا عن الشنط فوجدنا كل الحقائب إلا كرتونة معلبات أحضرناها لاستخدامها عند اللزوم ، وظللت أبحث لأنني الذى اشتريتها وأعرف شكلها وأخيراً وجدتها بعد عناء .. ثم انصرفنا .. تذمر السائقان من طول الانتظار وهددا بالانصراف إذا لم نزد لهما الأجرة فاضطر عماد لمضاعفة الأجرة فصارت ثمانين دولاراً وعلق محمود بكلمة واحدة : استغلال ! ..

كانت الدنيا قد أظلمت .. ولا توجد إضاءة إلا على بعد كبير .. ثم بدت لنا امرأة تطل من كشك علوى عند باب الخروج .. لا بد من دفع رسوم للخروج .. نزل عماد إليها .. أين مكان دفع الرسوم .. أشارت إلى مكان بعيد . ذهب مغضباً إليه وقال أكل هذا الجهد لندخل إلى البلد بعض الزوار . لم لا تجعلون دفع الرسوم على البوابة .. جلسنا فى السيارات ننتظره .. وعلقت قائلة مسكينة تلك المرأة .. تجلس فى هذا المكان وحيدة طيلة الليل .. مكان معزول مظلم .. فى منطقة نائية بعيدة .. أردف عامر :

وهذا هو حال المرأة دائماً فى هذه البلاد أنها تقوم بأعمال شاقة وصعبة فمثلاً لا يقوم بأعمال البناء والصباغة والسباكة وغيرها هنا إلا النساء كما أنها تقوم بجميع أعمال النظافة وقيادة سيارات النقل الجماعى (الترليبوس) سألته عن (الترليبوس) فقال :

مثل الترام عندنا فى الإسكندرية ولكنه له حرية حركة فهو خليط بين الأتوبيس والترام .. قلت : عرفته أليس هو مثل (الترلى باص) الذى كان

موجوداً فى القاهرة .. قال : لا أعرف .. قلت : بلى هو فقد كان فى القاهرة أتوبيس يسير على الكاوتشوك ولكنه يستمد الطاقة بواسطة الكهرباء قال نعم هو .. علقت قائلاً : وهذا المشروع قد ألغى الآن من القاهرة فقد كان يسبب كثيراً من الزحام والاختناق .. أضاف متهكماً : ولكنه لم يلغ من هنا فهو فى أغلب مدن الاتحاد السوفيتى السابق .. قلت : وهذا أيضاً تقوده النساء فماذا يفعل الرجال إذن .. قال : إنهم يستنكفون عن امتهان هذه المهن وقد كانت الشيوعية تنادى وتطنطن كثيراً عن أهمية عمل المرأة ومشاركتها للرجل سواءً بسواء .. الرجال فى الأغلب يعملون فى المصانع .. قلت فى نفسى : كم ظلمت المرأة بتلك الشعارات فأخرجوها من البيت فاختل البيت ثم أسلموها لتلك الأعمال الشاقة لتزداد تعاسة ببعدها عن البيت ثم تعبها فى العمل فماذا بقى لها من الأنوثة بل من الآدمية .. عاد عماد مرة أخرى وقدم للمرأة الأوراق وانطلقت بنا السيارات بعد أن سُمح لنا بالمرور .. جلست أتأمل فى الطريق .. طريق طويل محفوف بالأشجار .. فالمطار فى منطقة نائية .. جلست أنظر إلى الطريق ليس فيه إنارة كما هى العادة فى الطرق السريعة .. وعجبت لأنه خال كذلك من العاكسات الضوئية الصغيرة التى توضع فى أغلب الطرق السريعة الآن لتحديد الخطوط الأرضية وللسير على هواها .. الطريق عريض نسبياً ذكرنى بطرق القاهرة والسائق يضىء الطريق أمامه بالنور العلوى للسيارة .. لاح من بعيد شبح شخص يقف على جانب الطريق فى الظلام .. يبدو أنه ينتظر سيارة عامة تقله فهو واقف بجوار مظلة خرسانية كتلك التى توجد عند محطات الحافلات .. اقتربت السيارة أكثر وأنا أنظر إليه بتلقائية .. ما هذا .. إنه ليس شخصاً واحداً .. إنهما شخصان .. رجل وامرأة .. متعانقان .. أشحت بوجهى .. قلت لعامر .. نحن جئنا إلى هنا للدعوة وبما أنك من سكان

كييف نريدك أن تعطينا نبذة عن الدعوة هنا وأحوال المسلمين .

قال : طبعاً أنت تعرف أنني طالب ، وليس لدى عموماً خبرة فى أغلب وجوه الدعوة هنا ولكن سأقول لك ما أعرفه .. مثلاً يوجد هنا عرب كثيرون ومن جنسيات مختلفة أغلبهم طلبة فى الجامعات ، وغالباً يكون كل نشاط بحسب همة الطلاب فيها ، فأنا أعرف طلبة جزائريين ولبنانيين هنا يقومون بالدعوة وإلقاء الدروس ولكن أغلبهم الآن مسافرون فى العطلة . قال محمود : هل يوجد هنا مركز إسلامى ؟ .. فقال : إلى الآن لا يوجد ويبدو أن هناك مشروعاً لذلك .. منير : وكيف تصلون الجمعة إذن ؟ قال : فى مصليات الجامعة .. قلت : وهل يسمح لكم بالصلاة فى الجامعة ؟ قال : نعم .. وكما قلت إن بعض الإخوة لهم نشاط يرتكز على مساجد الجامعة كما أن لهم بعض الدوريات والجرائد يوزعونها بين حين وآخر .. سألته : وعامة الناس ؟ قال : الأوكران أغلبهم مسيحيون ، وبعد السقوط عادوا إلى مسيحيتهم .. وعموماً الناس هنا لا يفقهون شيئاً عن الأديان ولكن توجد الآن موضة التدين بين الشيوعيين . قلت : موضة ؟! .. قال : نعم فالتحضر الآن هو أن يعتنق ديناً .. أو بالأحرى أن يؤمن بوجود الله .. كما كانت الموضة قبل ذلك الإلحاد .. أيام بداية الشيوعية .. قلت : إذن فإن الموضوع هو نوع من الرفض للشيوعية يعبر عنه فى صورة اعتناق دين.. قال : تقريباً، لذا تجد أن أغلب الأديان والمذاهب هنا تعمل .. ولها دعاة .. ومراكز . قلت : والمسلمون ؟ قال : يوجد هنا الشيعة لهم نشاط كبير - نظرت إلى محمود ومنير ثم قلت : وكيف نشاطهم ؟ قال : ينظمون حلقات تعليم .. واحتفالات فى المناسبات .. وكذلك يصدرون المجلات والجرائد كما قلت لك .. سألته هل من الممكن تهيئة محاضرة أو إلقاء ندوة للعرب فى أثناء تواجدنا .. قال ممكن ولكن لابد من بعض الوقت لأخذ الإذن من الجامعة

وتهيئة المكان وإخبار الناس .. قلت لمحمود : ما رأيك ؟ قال نتشاور فى ذلك..

وكان الاتفاق بيننا على أن نرجع بالقول إلى مسئول واحد كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر فقال (إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمروا أحدكم) وكان أن اتفقنا على محمود .

لا تزال السيارة تسير ، ومن بعيد بدا لنا شاطئ نهر عرضه حوالى ثلاثين مترا سألت عامر : ما اسم هذا النهر ؟ قال دنيبر . قلت : ديبر . قال : لا دنيبر .. انحرفت السيارة إلى اليمين فوق كوبرى علوى يمر فوق النهر وبعد أن مشينا قليلاً بدا لنا "الترليبوس" وهو مزدحم تقريباً علق محمود .. ولا تزال الدنيا زحام .

ساد الصمت .. ثم وصلنا بعد حوالى عشر دقائق إلى الفندق .. أنزلنا الشنط من السيارات ثم دخلنا .. إنه ليس فندقاً كما نظن .. إنه أشبه بما يسمونه (بانسيون) ، الباب من الشارع يطل على باب آخر داخلى بينهما مسافة حوالى متر ونصف وهذه العادة منتشرة فى تلك البلاد بحيث تكون المسافة بين البابين طبقة عازلة عن الجو البارد ، أما الباب الداخلى فيطل على صالة بحيث إذا استمر الداخل فى السير قابله سلم للصعود إلى الأدوار الأعلى ، وعلى اليمين مكتب الاستقبال .. وكان خالياً من الموظفين وتوجد أمامه ثلاثة من كراسى الفوتيه وشماعة للملابس وعرفت فيما بعد أن شماعات الملابس منتشرة فى كل مكان حيث يخلع كل داخل من الخارج البالطو الثقيل الذى يلبسه عليها ويتحرك فى المكان المدفأ بواسطة تسخين المياة فى المواسير بحيث تمر المياه الساخنة من منبع حكومى وتضخ إلى البيوت أو إلى أى مكان عام .. على الطرف الأيسر من الصالة توجد مساحة مشابهة للطرف الأيمن ليس فيها إلا شماعة ملابس وجهاز تليفون

يعمل بالعملة المحلية ، المكان يلفه قدم لافت للنظر .. وقذارة لا تخطؤها العين ، صعدنا على السلم ثم دخلنا إلى اليمين فمررنا فى طرقة عرضها حوالى متر تطل على غرف على الجانب الأيمن للداخل عرفت فيما بعد أنها مكاتب مؤجرة لشركات وكان منها غرفة خاصة بإدارة الفندق . تكلم عماد مع عجوز بداخلها وأخذ منها مفاتيح الغرف .. صعدنا .. وأخذ كل اثنين منا غرفة .. أنا ومحمود أخذنا غرفة على يمين الطرقة مقابلها منير والطيب وبجوارها دارا والقحطانى وعلى أول الطرقة عماد وعامر .

تتكون غرفتنا من سريرين ودولاب لوضع الأمتعة حاولنا فتحه فلم يفتح فلم يفتح ! الأرض لا يغطيها شىء وإنما تغطى كل أرضيات الغرف بمشمع قديم .. وبالغرفة شباك طويل يطل على حديقة صغيرة تفصل بين مبنى الفندق والمبنى الذى يليه .. والحق أن نظام البناء وترتيب البيوت هنا جميل؛ فكل عمارة لا بد لها من منفذ ترى منه الحدائق والتى بالطبع تغطيها الثلوج فى الشتاء فينتهى المنظر البديع الذى نراه فى الصيف من اكتساء كل تلك الحدائق بالخضرة الجميلة .. وسط هذا الجمال الربانى من الحدائق الجميلة تقف العمارات التى أقامها الشيوعيون على طراز واحد فى الأغلب وبلا أى لمسات جمالية أو معمارية وهى شبيهة إلى حد كبير بتلك العمارات التى يسميها الناس عندنا بالإسكان الشعبى .. وأغلب البيوت فى كييف حوالى خمسة طوابق مرتفعة البناء بلا أى مصعد ! بعد أن استقر بنا المقام فى الغرف وحيث بذلنا جهداً مضنياً فى الصعود بأمتعتنا إلى الحجرات .. نظرت إلى عماد بعد أن أنهكنى التعب وقلت معلقاً : ألم يكن هناك فندق أفضل من ذلك ؟ .. قال وكأنه ينتظر منى أن أغير المكان : بالفعل يوجد طبعاً ولكنها غالية وعلى العموم كله عليكم .. وتأملت أن الغربة فى هذه البلاد تجعل من ساكنيها أشخاصاً أشداء .. كما أنها تطبعهم بطباع مادية

معينة .. فكل إنسان مسئول عن نفسه .. لابد له من توفير أسباب معيشتها ، إنه ليس له علاقة بغيره ولو على سبيل المجاملة .

دخل الجميع إلى غرفهم ، وانشغلنا قليلاً بترتيب الأمتعة حيث كان التعب قد أنهكنا ثم استعد كل منا للصلاة .. فقد تبقى لنا صلاة المغرب والعشاء نصليها جمع تأخير .. خرجنا للصلاة حيث وجدنا مكاناً به تليفزيون قديم موضوع على ترابيزة قديمة وكرسيان قذران للغاية من الكراسى الفوتيه المنجدة بمخلوط من الصوف والدوبار .. وقد تكونت على أذرعها طبقة سوداء دهنية من الوسخ فكنت أشمئز من مجرد النظر إليها .. كما توجد ترابيزة ونبتة ظل غير معتنى بها .. المهم أن هذه المعدات العظيمة موجودة فى صالة صغيرة .. يبدو أنها أعدت كاستراحة لنزلاء الدور .

أعددنا المكان للصلاة فأزحنا الكراسى .. وحددنا القبلة بالبوصلة .. واتخذنا البطاطين المعدة للنوم كمفارش للصلاة عليها .. ووقع اختيار الإخوة على العبد لله ليؤمهم فى الصلاة . كان المتفق عليه بين وزارة الأوقاف وهيئة الإغاثة الإسلامية أن تنزل مجموعتنا إلى كييف ثم تنتقل منها إلى شبه جزيرة القرم .. .. والتى كانت ذات أغلبية مسلمة حتى نقيم هناك دورة لتعليم الدعاة من ساكنى البلد .. بحيث نكون قد ساهمنا فى وقت قصير فى مساعدة إخوتنا هناك بشيء من العلم وتصحيح بعض المفاهيم كما أن وجودنا لاشك سيشد من أزرهم .. حيث سيفيدنا ذلك فى التعرف على أحوالهم بشكل عام .. ونشاهد أوضاعهم عن قرب .. كان بالاتفاق إذن على أن نذهب جميعاً إلى هناك .. ثم بعد انتهاء مدة الدورة ننتقل جميعاً كذلك إلى موسكو لإلقاء محاضرات أخرى هناك .. ولكننا بعد أن انتهينا من الصلاة جلسنا معاً لتناول العشاء من المعلبات التى اصطحبناها من الدوحة .

فقال عماد : الحقيقة أن هناك ترتيباً آخر غير المتفق عليه حيث إن عددكم أكثر من احتياج المهمة التى فى القرم لذا فقد قررت الهيئة أن يذهب ثلاثة منكم إلى موسكو مباشرة فى حين يتجه آخران إلى القرم للقيام بالمهمة هناك.. أثار ذلك الخبر قلقاً بيننا .. فقد كنا هيأنا أنفسنا على البقاء معاً .. ففوجئنا بهذا الخبر الذى يحكم علينا الافتراق .. وهنا بدأنا نشعر بشيء من الحيرة .. خلوت أنا ومحمود فى حجرتنا .. ومحمود هو الوحيد الذى لى به معرفة سابقة وطويلة .. فى حين أننا - أنا وهو - لا نعرف أحداً من مصطحبينا إلا عندما دعينا للسفر .. ومعنى ذلك أننا لا نعرف قدرات الآخرين من الخطابة .. والرد على الأسئلة والشبهات أو التصرف فى الأمور العامة ، وبما أنا قد أنطنا بمحمود المسئولية فلابد لنا من حل .. والمشكلة الآن هو أنه لابد لنا من الافتراق .. ومن المنطقى أن يكون كلٌ منا فى مجموعة بحيث لو اكتشف أن قدرات المجموعة غير مناسبة للقيام بالعمل والمحاضرات قام بذلك وحده ، استقر الأمر إذن على أن يكون محمود فى مجموعة وأنا فى مجموعة أخرى .. فمن يا ترى فى هذه المجموعة ومن فى تلك .. ؟ قلت لمحمود أنا شخصياً ليس عندى مانع أن أذهب إلى القرم ، وكنت أستحضر فى نفسى أن أكتب مذكراتى عن الرحلة فأريد أن أذهب إلى أكثر من مكان لتزداد تلك المذكرات ثراءً .. ولكنى سرعان ما اكتشفت أن تلك رغبة الجميع تقريباً ومن ثم وجدنا الحل الأمثل فى الاقتراع .. فاقترعنا قرعتين .. قرعة خاصة بى أنا ومحمود وقرعة خاصة بنير والطيب والقحطانى .. فأسفر الاقتراع عن تحديد سفرى أنا والطيب إلى القرم .. وأن يذهب بقية الإخوة إلى موسكو .. ويبدو أن رغبة منير كانت شديدة فى السفر إلى القرم فأخذ يراود محمود على أن يعيد القرعة أن يأذن له أحدنا فى التغيير .. والحق أنه ليس من عادتى أن أمتنع عن

رغبات إخوانى إلا أننى لم أجد مبرراً كافياً منه لأغير موقعى معه فرفضت حيث شعرت أن المصلحة التى ذكرتها أقوى من رغبته فى مجرد التعرف على مكان جديد .

انتهى الأمر إذن باستقرارنا على مجموعات السفر .. وقال عماد : بما أنكم لم تحصلوا على تأشيرة موسكو . وحيث إننا نحتاجها جميعاً .. لذا فسنقيم هنا حتى نحصل عليها من السفارة ثم تسافر المجموعتان إلى الجهتين المحددتين . سألته وكم يستغرق ذلك قال يومان على الأكثر سنقدم للتأشيرة غداً ونستلمها بعد غد إن شاء الله .. عندما خلوت بمحمود قلت : لماذا لا نجلس هنا فى كييف قليلاً ما دمنا موجودين فيها فعلاً ..؟ قال : إن لنا مهمة محددة نريد إنجازها .. قلت له : ولكنك سمعت من عامر عن وجود بعض الطلبة العرب ونريد أن نقيم لهم محاضرات إن استطعنا ، وما دمنا لن نتأخر إلا بضعة أيام فما المانع من ذلك قال فلنحاول إن نلتقى بهم غداً .. سكت على مضض .. ولكن فكرت وقلت لنفسى إذا فلحت فى تهيئة لقاء فى الغد فلعل ذلك يكون حافزاً للمجموعة أو على الأقل لمجموعتنا على الانتظار .

طال بنا السهر ومع ذلك لا نزال نشعر بالحيوية بعد أن استرحنا .. خرجت من الحجرة قاصداً عامر .. وذهبت إليه فى حجرته مع عماد .. وجلسنا قليلاً نتجاذب أطراف الحديث .. وفى استرخاء أخذ عماد يعلق على أن الحياة هنا تغيرت سريعاً فى السنوات الأربع الماضية .. وقال إنه فى أول عام أتى إلى هنا أنفق مائة دولار فقط فى خلال العام كله ! وأنه اشترى منها دولاباً وسريراً وبعض أدوات للمطبخ .. وأنفق البقية الباقية على المواصلات والطعام حيث يأخذ الطالب هنا حجرة مشتركة مع زميل فى سكن الطلاب .. ثم تنهد عامر قائلاً : ولا تكفى أضعاف هذه الأموال لنفقة

شهر واحد ، وذلك يرهق ميزانية الأسرة التى تنفق على الطالب المغترب .. ولذا فإن أكثر الطلاب يسعون للعمل أو التجارة أثناء مدة دراستهم .. وهذا شيء صعب ؛ فالدراسة تتطلب تفرغاً لأن أغلب الطلبة يدرسون مواد علمية كما أن طبيعة التجارة فى البلد لها أوضاع خاصة فى وجود المافيات .

سألت فى فضول حدثونى عن المافيا فقد أثار الحديث عنها رغبتى فى التعرف على نشأتها . قال عمار : إنها طبقة تكونت بعد سقوط الشيوعية وهى عصابات منظمة تفرض أتاوات على التجار وغيرهم من الأغنياء والسياح حتى الهيئات الإسلامية لا تنجو أحياناً من مطالبة المافيا لها بالأموال . قلت : والذى لا يدفع .. قالوا : فى الأغلب يكون جزاؤه القتل . قلت : معقول .. القتل .. قال عامر : بلا أدنى رحمة .

سألت وكيف تكونت تلك العصابات ؟ قال : بعد انتشار البطالة وعقب انهيار الشيوعية وارتفاع الأسعار وهذا التغير السريع فى المجتمع شعر أولئك بأهمية الثراء السريع فأخذوا هذا السبيل حيث لا دين يمنعهم ولا حكومة قوية تقف أمامهم .. قلت وكيف تكوَّنوا إذن ؟ أجاب دارا : أكثرهم من الشيوعيين الذين كانوا يعملون فى جهاز المخابرات (الكى جى بى) قبل انهيار الشيوعية ، لذا فقدراتهم عالية فى استخدام الأسلحة كما أن لديهم مهارات أخرى مختلفة اكتسبوها من عملهم كعملاء للمخابرات . والغريب أن بعضهم لا يزال يعمل فى المخابرات حيث يتسنى لهم مع تواجدهم فى أماكن عملهم بالاطلاع على أسرار معينة تساعدهم على التعرف على الفرائس التى يصطادونها .. دار رأسى وأنا أتخيل ما يحدث.. قلت وهل يشارك المسلمون فى شيء من ذلك ؟ بدا الاهتمام على وجهه وهو يقول نشأ كرد فعل عصابات أخرى من المسلمين وهم يحملون نفس الصفات الإجرامية إلا أنهم غالباً لا يهاجمون إلا الكفار ويبررون لأنفسهم

ذلك بأنهم قد نالوا من الشيوعيين الأذى الكثير عبر سبعين عاماً حكمها الشيوعيون وآن الأوان لتصفية تلك الحسابات .. وأردف عامر : أمر معقد.. قلت : بالطبع ولكن فعلهم مذموم بلا شك .. سألت وهل يهاجمون المسلمين ؟ قال عماد : أحياناً حسب طبيعة المافيا ، وقد تحدث مواجهات بين المافيات وبعضها تسال فيها الدماء أنهاراً .. سألت بالنسبة للمسلمين من المافيات هل هم من قوم معينين قال أغلبهم من الشيشان وهم قوم أشداء بطبيعتهم ومنهم بالمناسبة رسلان حسب الله توف رئيس البرلمان الروسى السابق ومنهم كذلك الأوزبك وفيهم ضخامة فى بنيتهم وقوة وإن كانوا أقل جرأة من الشيشان .

تململ دارا فى جلسته ثم قال : وبالمناسبة نذكركم طبعاً ألا تفتحوا الأبواب عند سماع الطرقات عليها إلا بعد التأكد تماماً من شخصية الطارق لأنهم كثيراً ما يتبعون هذه الأساليب مع الغرباء لسرقتهم بالإكراه .. ابتسمت فى كلل ثم نظرت إلى عامر وقلت له : ألا تستطيع أن تحدد لنا موعداً مع بعض الطلبة العرب بحيث نقيم محاضرة أو حتى لقاءً دعوياً محدوداً .. فقال : أنت تعلم أننا الآن فى أجازة الصيف وسيكون من الصعب التحضير لمحاضرة عامة لا سيما أن أكثر الإخوة هنا على سفر ولكنى سأحاول ترتيب لقاء بينكم وبين بعض الإخوة هنا وبالذات أخ جزائرى نشيط فى الدعوة .. عندئذ شكرته وانصرفت إلى الغرفة .. فقد كنت متعباً من مجهود ذلك اليوم الحافل ❑

فى الفنـدق

استيقظت صبـاحاً وأنا أكثـر نشاطاً واستـعداداً للعمل .. فـسألت عن عمـاد وعامـر فقالوا : إن عـماد ذهب إلى السـفارة الروسيـة لنأخذ تأشـيرة الدخـول ، وعامـر ذهب للمشـروع الذى تلزمـه الجامـعـة بالانخـراط فيـه للتـدريب .. نظرت من الشـباك وجلـست قليلاً .. أغلـب الزملاء نيـام من جراء اليوم السابق ، دفـعنى الفضول إلى النزول إلى باب الفندق ثم أخذت جولة فى المستطيـل المحيط به .. الشارع أمام الفندق عريض قـدرت عرضه بحوالى ٢٥ متـراً والحياة تسيـر بشكل رتيب و(الترامفاى) تمتلـئ بركابها .. وتأملت فى كلمة الترامفاى تلك فإن أهل الاسكندرية يطلقون على (الترام) اسم (الترومـاى) كما يطلق أهل القـاهرة (الترلى باص) على (الترليـبوس) الذى رأيناه سـابقًا . فـهل يعـد هذا من آثار أيام الاشتـراكـية التى أحـدثت تداولاً لبعض الكلمات بل وغـيرت فى المفاهيم المنتشرة والعادات المكتسبة والتى منها اللامبالاة .. المنتشرة فى كثير من صور التعاملات .

الجو صيفى جميل والخضرة تملأ المكان .. إن أجمل ما فى هذه البلاد هى تلك الطبيعة الخلابة التى حباها الله بها .

مشـيت بجوار خط الترامفـاى قليلاً ثم انحرفت يمـيناً فى أول شارع ثم يمـين فـيمين إلى الفندق مـرة أخـرى .. الحيـاة هادئة .. ولكن لفت نظرى وجود كـثيـر من الناس فى الشوارع : شـباب من الجنـسين ونسـاء وأطفال ورجال وشـيوخ .. إنهم فى الغـالـب يتسكعـون وفى وقت يفتـرض أنه من وقت العمل الرسـمى .. ألا يعمل هؤلاء ؟ .. سؤال تـردد فى نفسى وقلت سأطرحه على الإخوة .

مر علينا يومان ونحن بانتظار التحرك وليس لنا من دور نقوم به إلا تلك المناقشات الجانبية مع عامر وعمار .. كان السبب فى تأخرنا أن عماد كلما ذهب لأخذ تأشيرات الدخول من سفارة روسيا يجد زحاماً شديداً عليها من الطلبة الذين يرغبون فى الذهاب إلى موسكو فهم يملأون شارع السفارة .. ويقف شرطيان على بابها يمنعان الناس من الدخول إلا عدداً معيناً كل يوم وبالطبع من يدفع لهم سيدخل ومن لا يدفع لا يدخل ضمن هذا العدد ، ولم يدفع عماد .. فلم يدخل ! وينتهى اليوم عليه فى محاولات الدخول فيعود إلينا فى الرابعة تقريباً .

سأل منير: ولماذا يحرص الطلبة على الذهاب إلى موسكو؟ فقال عماد : إن الكثير من المصالح لا يزال مرتبطاً بموسكو ولا سيما شهادات التخرج العلمية .. وعلى العموم ما زالت موسكو تمثل ثقلاً كبيراً فى الجمهوريات التى استقلت عنها . أضاف عماد سأحاول إن شاء الله غداً أن أقابل السفير أو حتى القنصل لنأخذ لكم التأشيرة فمن منكم يريد أن يأتى معى فقال محمود أنا .. يبدو أن عماد المسكين قد أتعبته تلك المهمة السخيفة .

قال عماد : نريد أن نتمشى قليلاً فى البلد .. أن ننزل إلى المحلات ونغير الجو عموماً .. وافقت رغبته تلك حوائجنا ؛ حيث كان الملل قد تسرب إلى نفوسنا بعد قضاء ثلاثة أيام فى الفندق .. وحيث لا نجد لنا غداءً إلا ما كان معنا من المعلبات .. فول وجبن وسمك وتمر وعسل .. فلا نأكل إلا بعضها فى الإفطار وفى الغداء والعشاء .. تعاطف معنا دارا وقال : اتفقت مع عامر على أن نذهب غداً صباحاً سوياً لنشترى لحماً إسلامياً من جزار مسلم أعرفه .. سنذهب سوياً فأطبخه لكم .. وارتفعت الضحكات مباركة تلك الخطوة فقد أنهكنا أكل المعلبات فهنا تنعدم المطاعم الإسلامية ..

أردفت أياً كان طبيخك فسيكون شهياً يا دارا ..

قال فى ثقة : ومع ذلك فأنا طباخ ماهر ❑

جولة قصيرة

خرجنا بعد تناول غدائنا المعتاد لنتنزه كما اتفقنا .. ذهبنا أولاً إلى مركز للمحلات قبل أن ننزل إلى وسط البلد .. واشترينا بعض الهدايا التذكارية أغلبها أطباق خشبية سوداء مرسوم عليها بألوان الزيت باقات زهور متقنة وشكلها جميل ، وعلمنا أن هذه الأطباق والبراويز هي تقريباً أكبر ما يميز المنتجات الجمالية في هذه البلاد .. اشتريت كذلك لوالدى ولوالد زوجتى بدل صوفية قيمة الواحدة حوالى ٢٥ دولاراً ثم لم نجد شيئاً آخر سوى المنتجات غير المحلية أى المستوردة والتى تمتلئ بها أغلب المحلات حتى الحكومية منها ، فكل المعروضات تقريباً من أحذية وملابس وأجهزة كلها من صنع الخارج وأسعارها مرتفعة .. وما لفت نظرى كذلك أن طرق العرض فى المحلات بدائية جداً فهم مثلاً يضعون الأحذية على طاولات طويلة بلا نظام لا فى الألوان ولا فى الأشكال والمقاسات ...

إن وسط البلد عبارة عن شارع كبير به حديقة جميلة بها نافورة وقريب منها مجموعة المخلات والتى أغلبها حكومية والأخرى صغيرة خاصة ، كما تنتشر أكشاك لبيع المرطبات والخمور المستوردة .. وأكشاك أخرى تبيع العملة وبالمناسبة فعملة البلد اسمها (كوبون) وكل مائة دولار تساوى أربعة ملايين ونصف كوبون .. قلت معلقاً على ذلك وأنا أضع الكوبونات داخل جيبى .. أين أصحابنا الآن ليرونا ونحن أصحاب ملايين ! وبالطبع لا تشترى تلك الملايين إلا القليل .. فإن رغيف الخبز بحوالى عشرين ألف كوبون .. وزجاجة المياه الغازية بحوالى ٤٥ ألف .. ينتشر فى المكان مصورون للصور التذكارية يحملون نسانيس أو أرانب ليمسك بها من يريد

التقـاط بعض الصور التذكـارية ، وهم بالطبع يلتقطوننا من أشكالنا العـربية ليعرضـوا علينا خدماتهم .. الزحام شـديد وخاصة حول النافورة الصـغيرة على الرصيف الـعريض من الشارع وقـد تمشيت جيـئة وذهاباً .. باحـثاً عن مكان للجلوس على الدكك الخـشبيـة المنتشـرة ففشلت ؛ فكـل دكة يجلس عليهـا حوالى ٨ أشخاص وهى تكفـيهم بالكاد .. والناس تقريباً من جـميع الأعمار .. وقف دارا يتـحدث إلى أشخاص كرديين يبـدو أنه تعرّف عليهـم من أشكالهم بينما تمشيت قليلاً .. وأخذت أنظر إلى المحلات من الخارج ثـم قابلنى بائع جـرائد وقفت بجواره أنـظر إلى الكتب والمجلات التى يعرضـها فلم أجده يبيع شيئـاً بلغة أفهمها إلا أننى وجدت عنده نسخـاً عدة معروضة لمجلات يبدو من غـلافها أنها مجـلات جنسية مما أثار اشمئـزازى فأسرعت الخطو خلف الإخوة ❑

الرهبان

قال لى محمد الطيب ونحن نجلس سوياً فى حجرته فى الفندق إن مشرفة الدور سألت عماد : هل نحن رهبان ؟ وهل هناك شيء يمنعنا من النظر إلى النساء ؟ .. قلت معلقاً : لعل ذلك بسبب أننا نغض أبصارنا .. وأن هذا شيء لم تعتد عليه .. وماذا قال لها عماد ؟ .. قال محمد أجابها : بأننا أشخاص عاديون .. وأن عندنا أسر وزوجات ولكن هذا من أدب الإسلام .. قلت يا أخى ما أعظم الإسلام والله إنه ليسمو بالإنسان عن كل سوء .. فها نحن نرى أولئك الذين يتهمون المسلمين زوراً بأنهم شهوانيون وأنهم يعددون الزوجات من أجل ذلك .. نرى نحن أثر الفوضى فيهم وكيف قلبت حياتهم تعاسة .. إن هنا - كما سمعت - من يسمون الأمهات الوحيدات .. وهن نساء ينجبن من الفاحشة ثم يربين أولادهن ويتحملن أعباءهن ، ولا تملك الواحدة منهن دليلاً يدين أباه أو حتى قد لا تعرف من هو .. وكانت هذه الحالات معترف بها رسمياً إلا أن الحال تبدل بعد تخلى الشيوعية عن كل ما كانت تلتزم به فقد كان للجميع حقوق أو هكذا سموها ولكنها سقطت مع الشيوعية ..

استأذنت لأدخل الحمام وهو متر فى متر يكفى بالكاد لدورة المياه مضافاً إليها مربع للاستحمام يرتفع عن الأرض بربع متر ولا أدرى ما الحكمة فى ذلك الارتفاع .. المهم أننى اغتسلت ثم خرجت بعد حمام منعش لأسمع طرقاً شديداً على الباب .. (دا) .. يعنى نعم بالروسية .. ونفذت أوامر الإخوة ألا نفتح لأحد حتى نستوثق منه وجاءنا صوت امرأة غاضبة من خارج الحجرة ، تتكلم بالروسية ، وقفت قليلاً لأتشجع وأفتح فإذا بها فرّاشة

الدور التى تقوم بالتنظيف تشير بغضب إلى بعض آثار الماء التى تسربت من الحمام - بسبب اغتسالى - إلى خارج الحجرة وبالطبع لم يكن بالحمام ما يمنع سريان الماء إلى خارجه ولعل هذا سبب ارتفاع مربع الاستحمام عن الأرض .. وبالطبع ليس لدى هؤلاء ذوقيات التعامل المنتشرة فى الفنادق الحقيقية الأمر الذى دفعها للتصرف بهذا الأسلوب ، وشعرت برغبة دفينة فى أن أضربها جزاء ما ضايقتنى بصياحها إلا أننى اكتفيت بكلمات عربية لم تفهمها بالطبع ! عبرت لها بها أن هذه ليست مسئوليتى فى هذا الفندق القذر .. ثم أغلقت الباب أمامها وهى ما تزال تثرثر .. ثم جلست بالداخل وأنا أضحك من الموقف ❑

اتصالات دولية !

على مقربة من الفندق يوجد مكتب للبريد به تليفون دولى فرغبت أن أتصل بالأهل فصحبنى عامر إلى المكان وجاء دارا معنا ، وقال عامر لعامل التليفون نريد الاتصال بالدوخة (بالخاء) حيث إنهم ليس لديهم حرف أقرب للحاء من الخاء ويكتب كحرف (X) إكس بالإنجليزية .. وأثار ذلك فضول العاملة وسألته : أين مكان الدوحة ؟ فقال لها : قريب من البحرين فعرفته .. ثم طلبت الرقم ووقفت فى كابينة التليفون أتصبب عرقاً فهى ضيقة وليس بها فتحة للتهوية ، ويبدو أن هذه البلاد صممت من أجل البرد فقط .. قبل أن ألتقط الخط انصرف عامر وبقى دارا وهو لا يعرف الروسية جيداً .. إنما هى بضع كلمات فقط يتعامل بها .. ثم أخيراً جاء الخط .. وانتظرت على الطرف الآخر فترة طويلة .. فالتليفون فى قطر ليس به نغمة مميزة بالخط الدولى تلفت الانتباه .. وجاءنى بعد فترة صوت حبيب إلىّ إنها ابنتى الصغيرة سمية .. عمرها حوالى سنتين .. يا سمية فين ماما .. تقول مرددة ماما : .. طيب هاتى إيمان بسرعة - أختها الكبرى - فتردد إيمان .. ياسمية أنا بابا فتقول بابا .. يبدو أننا لن نتمكن من التفاهم سوياً .. فتحت الباب وسألت دارا لو أغلقت التليفون الآن هل من الممكن أن نسترد بقية ثمن المكالمة قال نعم .. فأنهيت المكالمة اللطيفة ثم ذهبت متفائلاً إلى دارا الذى بدوره تفاهم بلغته مع الفتاة ثم انصرفنا ، وسألته إن كان استرد شيئاً من الدولارات التسعة ثمن المكالمة فقال لا .. إنها قالت لا يمكن ذلك حيث إن ثمن المكالمة ثابت .. فشعرت بالأسى ضاعت المكالمة وأخذوا الفلوس !

أردت فى المساء أن أكرر الاتصال فصارحت عماد برغبتى فقال إن

المكتب القريب يغلق أبوابه فى الثامنة بعد الظهـر ! ولا أقول مساءً ، فالمساء من بعد العاشرة ، وكانت الساعة تجاوزت العاشرة والنصف ليلاً عندما خرجت أنا وعماد ومنير إلى الشارع قاصدين مركز المدينة لنجرى أنا ومنير اتصالات دولية .. وظللنا أمام الفندق عشر دقائق بانتظار سيارة مناسبة لتقلنا .. وقد أخذت تعبير (مناسبة) لأن هناك سيارات غير مناسبة إما أن يكون من بها أكثر من أن نركب معهم أو أن بها نساء أو ما أشبه .. على العموم المعروف هنا أن كل السيارات الخاصة تنقل ركاب مقابل أجرة .. وهذه العادة لاحظتها فى كل مكان ذهبت إليه فى هذه البلاد ، فنظراً للظروف المعيشية المتدنية سرعان ما تجد أى سيارة تشير إليها لتتجادلا فى الأجرة ليُقلك إلى أى مكان تريد .. ولا يمنع وجود أسرة صاحب السيارة أو صديقته مثلاً من أن يفعل ذلك .. وصلنا إلى مركز المدينة ونزلنا إلى نفق للمشاة لنخرج إلى الطرف الثانى من الشارع .. زجاجة خمر مكسورة على الأرض .. وصلنا إلى مركز الاتصالات وبانتظار الدور .. وقفت قليلاً فأصابنى الملل فالجو ليس به تهوية .. فما بالك بداخل كابينة الاتصال .. الأمر الذى يدفع المتصلين لفتح الكابينة أثناء وقوفهم فيصل إلى سامعى خليط من أصوات لا أعرف أغلبها .. وكان أحدهم يتكلم بالعربية وآخر بالإنجليزية والباقى بالروسية تقريباً .. وقفت على الباب الخارجى فإذا برجلين يسندان ثالثاً بينهما ينزلان من دور علوى .. ظننت لأول وهلة أن ثالثهم هذا مريض أو أصابه شىء ، ولكننى سرعان ما استنبطت من زيغ عينيه وتموج حركته ثم من ابتسامة امرأة تقف للحراسة أمام الباب .. أنه مخمور لأول مرة أرى مخموراً .. ولأول مرة أرى إنساناً بهذا الشكل المزرى ..

لقد امتنع كثير من عقلاء العرب عن شرب الخمر حتى قبل إسلامهم لما

رأوا ما تفعله فى شاربها .. منتهى الضعف والمهانة .. تابعتهم بنظرى .. ذهب أحدهم ليحضر السيارة ، وأجلسوا صاحبهم على حجارة دائرية أسفل عمود الكهرباء أمام مبنى الاتصالات ..

أحضر الرجل السيارة وأسرع الآخر ليفتح الباب تاركاً المخمور مكانه فلم يتمالك نفسه أثناء جلوسه فسقط على الأرض محدثاً صوتاً زاد من اشمئزازى من شكله فدخلت إلى مكان الاتصال مرة أخرى .

أتممت الاتصال بحمد الله تعالى ثم اتصل منير من نفس الكابينة وخرج ثلاثتنا إلى الشارع .. سرعان ما لاحظت أنا وعماد أن منير متضايق .. يبدو أن شيئاً ما أحزنه فى المكالمة .. اقترح علينا عماد أن نتمشى قليلاً قبل العودة ليرفه عن منير ..

وبالفعل تمشينا فى نفس الشارع باتجاه السكن .. وبعد قليل أثناء سيرنا لاح لنا أربع نساء يمشين بالاتجاه المقابل لنا .. الرصيف عريض ولكنهن ظللن يمشين باتجاهنا .. قلت لعماد .. ما هذا ؟ قال : لا أدرى يبدو أنهن مخمورات .. انحرفنا إلى اليسار فانحرفن جميعاً باتجاهنا .. وأصبحنا على بعد خطوات .. وقد تراءى الجمعان .. وإذا بالمرأة التى أمامى تسرع الخطى باتجاهى كصديقين حميمين التقيا بعد غياب ويبدو أنها فوجئت بعدم استجابتى ؛ فانحرفت بعيداً عنى قبل ارتطامنا .. قال عماد معلقاً لو كانت اقتربت أكثر للكمتها بقدمى فى بطنها .

أكملنا السير والهدوء يلف المكان ويداعب وجوهنا نسيم عليل .. وأشجار باسقة .. لولا الغربة وعدم الشعور بالأمان فى هذه البلاد لاستمتعت بها كثيراً ❑

تأشيرة روسيا

استيقظت صباحاً لأجد عماد ومحمود يستعدان للخروج كما اتفقا للحصول على التأشيرة .. وأخبراني كذلك بخروج عامر ودارا ليجهزا الغداء .. كل شيء على ما يرام .. جلست أقرأ أمام النافذة في حجرتي ، ثم خرجت فتمشيت في الحديقة الصغيرة خلف الفندق .. بها مراجيح للأطفال ولكنها كالعادة قديمة وقد تعطل منها الكثير ، والأطفال هم الأطفال يلعبون بالمتاح .. ظللت أسير في دائرة حول الفندق حتى لا أفقد الطريق وأنا أتأمل في أشكال المباني .. كل شيء على حاله منذ ما لا يقل عن ثلاثين سنة تماماً كما أخبرني التاجر الإيراني في مطار الشارقة .. وقفز إلى ذهني سؤال.. يا ترى ماذا يقول الناس في هذه البلاد بعدما عاشوا الشيوعية ثم رأوا سقوطها.. وتيههم بعدها .. أتراهم يتحسرون على الشيوعية ؟ .. ألم تكن تكفيهم مؤونة تلك الحياة الصعبة التي يعانون منها الآن .. رجلان وامرأة يقفون في الطريق حول صندوق يبدو أنهم يريدون نقله إلى داخل البيت .. ويبدو أن هناك خلافاً بين الرجلين والمرأة تهدئ من روع أحدهما.. رجل كبير قد تخطى الخمسين فيما يبدو لي .. والمرأة تربت على كتفيه بحنان .. سبحان الله لغة لا أفهم منها شيئاً ويعيش بها ملايين البشر!.. تابعت تفكيري وقلت لنفسي إنه هذا التيه الذي خلفته الشيوعية وراءها ليس نتيجة غيابها ؛ وإنما هو نتيجة سلوكها السابق أليست هي التي امتصت خيرات الشعوب التي احتلتها ليتمتع بها الحزب الشيوعي ومن حوله .. وقتلت في الناس الشعور بالإبداع واستقلال التفكير ثم بذنبها الأكبر .. وهو الكفر بالله تعالى خالق الكون ورازقه فجعلت الدعوة إلى الإلحاد مبدأها فماذا

تنتظر أن تُخلف .. تقفز إلى ذهني صورة ذكرها الأستاذ/ عبد الحليم خفاجي في كتابه القيم (حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون) حيث سجل فيه مناظرات قامت بين الشيوعيين والإخوان أثناء التقائهم في السجون .. ومنها مقارنة بين حال الزنازين التي فيها الشيوعيون والأخرى التي فيها الإسلاميون .. فرق واضح .. الإسلاميون يستيقظون مبكرين .. ينظفون المكان ويرتبون الأغطية .. وتراهم متفائلين .. متحابين.. متعاونين.. أما الشيوعيون فيستيقظون متأخرين .. قذارة في السلوك .. اختلاف دائم .. تباغض لا يخفى ..

عاد عماد ومحمود بعد ساعات .. يبدو عليهما أثر وقوف في الحر .. لقد أخذنا التأشيرات أخيراً .. قالها عماد .. قلت لمحمود أحقاً ؟ قال : نعم ثم ضحك وقالولكن بطريقة عجيبة .. قلت كيف .. قال عماد أبداً .. دخلت للقنصل لأعرض عليه الأوراق .. فقال بعد أن طالع صوركم .. وماذا سيفعل هؤلاء في موسكو ؟ قلت : إن معي دعوة من هيئة الإغاثة .. فبدا عليه عدم الاقتناع ثم رفض فخرجت واتصلت من الخارج بالسفير وطلبت مقابلته .. وما أن دخلت عليه حتى أخرجت مائة دولار له قائلاً إن هؤلاء ضيوف عرب يريدون أن يذهبوا إلى موسكو ولم يتمكنوا من إحضار هدية لك فرجاء قبول هذه الدولارات بدلاً من الهدية .. قلت سبحان الله أخذها ؟! قال : طبعاً .. قلت السفير ؟! .. سفير روسيا ؟! قال: نعم .. ضربت كفاً بكف .. حتى السفير يأخذ رشوة .. ورشوة تافهة كهذه ، أضاف عماد اتصل السفير بالقنصل آمراً إياه بإعطائنا التأشيرات فعدت إليه فإذا هو يتميز غيظاً .. واتصل بالسفير ثانية ويبدو أن الأخير أغلظ له القول.. فظل يملأ التأشيرات بيده وهو يتمتم بكلمات غاضبة ❑

سكن الطلاب

كنت ألبس أنا والطيب الثوب العربى عندما مررنا بالممر أمام مشرفة الدور وعلى الطرف الآخر كان عماد واقفاً .. رفعت المرأة صوتها مخاطبة عماد فضحك منادياً علينا أنها تقول إن الثياب التى تلبسونها جميلة .. وهى تتمنى أن ترتدى ثوباً مثله .. فضحكنا .. فإما أنها ترى أن ملابسنا نسائية أو أنها تريد ارتداء ملابس الرجال .. ودخلنا الحجرات .

لقد تأخر دارا وعامر .. والساعة قد تجاوزت الثالثة ظهراً .. وما زلنا بانتظار الأكل الجميل .. أخيراً حضر دارا وقال إن الأكل على وشك الانتهاء .. وإن كانوا لم يجدوا لحماً أو دجاجاً مذبوحاً إلا أنه قام بطهى كوسة وأرز عند بيت عامر فى سكن الطلاب ..

اقترح عماد علينا - أنا ومحمود - أن نذهب سوياً إلى سكن الطلاب فى كييف لنساعد الإخوة فى إحضار الطعام ، وفى نفس الوقت قد نجد الطلبة العرب فنتعرف عليهم .. ولعلنا نأخذ منهم موعداً .. وبالفعل ذهبنا على أقدامنا مسافة ليست بعيدة .. سألت عماد .. كيف أتيت إلى هنا ..؟ قال أبداً فأنا كنت عضواً بحزب العمل الاشتراكى فى مصر وهم الذين رشحونى للبعثة إلى هنا . قلت إذن أنت تعرف عادل حسين ومجدى حسين وغيرهما من أعضاء الحزب ؟ قال : نعم .. وأنا ما زلت أراسل الجريدة ولكن باسم مستعار ، وقد حدث ذات مرة أن تشاجرت مع ضابط شرطة تعسف فى تعامله معه فذهبت إليهم وقلت لهم إن لم توقفوا هذه المهزلة فسأترك الحزب إلى غير رجعة .

وصلنا إلى سكن الطلاب .. المبنى مشابه للبناء المعتاد فى البلد لكن به

بعض البلكونات .. أمام المبنى وجدنا مجموعة من الشباب أشكالهم عربية يقفون بتسكع بجوار الباب الرئيسى ومعهم فتاة شقراء أوكرانية يبدو أنهم يتنافسون عليها من طريق خفي .. إنهم جميعاً فى أواخر العشرينات .. يبدون تماماً كشِلل الكليات من الطلبة الفاشلين الذين لا همٌ لهم إلا الجلوس فى الكافتيريات والحديث مع البنات .. فيرسبون السنوات الطوال ويكبرون .. من حيث لا يشعرون .. وهم ما زالوا على نفس السلوك .

قلت لنفسى : وهذا أيضاً من حصاد الاشتراكية إياها .. شباب يتركون بلادهم وأهليهم لشعارات طنانة ثم يأتون إلى هذه البلاد حيث النساء وغياب الرقباء وقلة الاكتراث بالدين فيحدث منهم ما نرى ، وقد يعودون بعد ذلك إلى بلادهم على أنهم علماء أو مثقفون .. وقفنا وسلمنا عليهم .. فسلموا علينا بعضهم بدهشة وبعضهم باستغراب ثلاثة منهم تقريباً من الشمال الأفريقى .. من المغرب أو تونس أو الجزائر .. وكان أحدهم مصرياً.. دعانا إلى حجرته ..فى الحقيقة لم أسترح إلى شكله .. فى وجهه جمود .. لا أدرى هل بسبب جفاء الغربة أم جفاء اللقاء ؟ سبقنا عماد إلى الدخول .. لم يفتنى أنه سارع إلى مداراة زجاجة كانت على المنضدة التى تنتصف الحجرة .. استأذن عماد ليصعد إلى عامر .. وجلسنا مع صاحب الوجه الجامد .. حدثناه عن مهمتنا وأننا جئنا للدعوة ولقائكم .. رحب بنا.. فجلسنا نحدثه عن أهمية دور العرب فى هذه الأماكن وأنهم قدوة .. وأن المسلم ينبغى عليه أن يحفظ دينه وأن يعلم أنه عنه مسئول .. أحسست أنه لم يتفاعل معنا .. وسرعان ما استأذن وخرج من الحجرة .. نظرت إلى محمود ونظر إليّ .. وتصارحنا إلى مشاعرنا فوجدناها متطابقة .. إن على الداعية أن يدرك أن طريقه ليس مفروشاً بالزهور .. على الأقل نحمد الله على أن فى الناس بقية من الخير بها ينصتون إلينا .. ولا يسيئون لنا .

أجلت نظرى فى الحجرة .. حجرة عـادية كتلك التى فى سكن المغتربين فى مصر وما كانت لتخلوا بالطبع من بعض صـور خليعة للنساء .. الحجرة متوسطة الحجـم وبها دولاب ملابس ودولاب صغير وسرير مـفرد ومنضـدة نجلس عليهـا وحولها كـسيان وأمامـها منضدة أخـرى متوسطة يضع عليـها بعض أغراضه .

جاءنا عماد وعامر .. (إيه يا بنى ما هذا التأخير ؟) .. تبادلنا الابتسامات مع عامـر ورفض الاثنان أن نحمل عنهمـا الطعام .. كم نحن مشتـاقون إلى طعام مطهى .. فمنذ قدومنا ونحن لم نأكل إلا الجبن والمعلبات .

غادرنا المبنى .. ولا أحتاج طبعاً إلى التـذكير بقدم المبنى ولا إلى تقليديته المعتادة فقد اعتدنا على هذه النمطية فى أغلب المبانى ❑

إلى اللقاء

لم يعد لنا فى كيف مقام بعد أن حصلنا على تأشيرة موسكو وبعد أن فشلنا فى إيجاد فرصة مناسبة للقاء عام بالطلبة عن طريق عامر لأن أغلبهم قد سافروا كما قال لنا ، وكنا قد اقترعنا على من سيسبق إلى موسكو ومن سيسافر إلى القرم فكانت قرعة القرم من نصيبى أنا والطيب كما ذكرت آنفاً.. إذن فسترحل المجموعتان .. أنا والطيب ودارا إلى القرم ومحمود ومنير والقحطانى وعماد إلى موسكو .. قام عماد بحجز تذاكر سفر بالقطار إلى موسكو .. وكان الموعد بعد غروب الشمس وذهبنا جميعاً لنكون فى وداعهم .

إن محطات القطار تنبض دائماً بالحياة حتى فى الليل وهى كذلك تضم نوعيات مختلفة من البشر ما بين المسافرين وتباين أشكالهم ، والموظفين وسيرهم الحثيث ، والبائعين وما يحملونه من البضائع من الخبز والفودكا إلى الخناجر والجرائد .. والمفاتيح ، ثم أخيراً هى مأوى المتشردين وأصحاب العاهات وبعض المتخلفين عقلياً .

لم يطل انتظارنا .. حتى وصل القطار .. فساعدنا إخواننا على إيداع حقائبهم فى حجرات النوم .. سألت عماد : كم تستغرق رحلتكم ..؟ قال : حوالى ست أو سبع ساعات .. القطار متوسط القدم وكذلك حجرات النوم داخلة .. كل حجرة تتكون من أربعة أسرّة : سريران سفليان وسريران علويان يصعد إليهما الراكب بسلم صغير .. كان هناك بعض الوقت قبل أن يبدأ القطار رحلته أمضيناه على الرصيف نتجاذب الأحاديث الباسمة والأمنيات باللقاء السريع .. وكنا نحن المسافرين إلى القرم سنركب الطائرة إليها بعد يومين .. لم تفتنى نظرات حادة يحدجنا بها شخص مفتول

العضلات يقف بجوارنا وبيده زجاجة كبيرة من الفودكا يتجرعها بنهم .

مرت حوالى نصف ساعة عندما ارتفع صوت القطار مؤذنا بالتحرك ومعه امتدت الأيدى مصافحة ومودعة ثم انصرفنا نحن الأربعة .

كنت أمشي ودارا تسبق خطانا عامر والطيب وأخذ يقص عليّ كيف أنه اضطر ذات مرة أن يركب قطار النوم فى رحلة طويلة إلى الجهات الشمالية، وكيف أنه لم يكن معه فى الحجرة سوى فتاة روسية .. وكيف أنها كانت تتعمد إغراءه .. فطلب من مشرفى القطار تغيير مكانه فلم يجدوا له مكاناً خالياً .. فبات فى هذه الحالة من المقاومة والإغراء إلى أن سلم الله بطلوع الصباح ووصول القطار .. رددت عليه : إنك بذلك تعرض نفسك للانهيار فقد كان أولى بك أن تخرج من الحجرة ولو أن تقضى الليل خارجها فإن البعد عن الفتن أنجع فى علاجها من مقاومتها مع التعرض لها .. فإنه ما خلى رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما يزينه لها ويزينها له .. التفت إليه وأنا أحدثه .. فلم أجده بجوارى .. ظللت أنظر إلى مكانه فلم أجده فقد حال بيننا مرور مجموعة من المسافرين .. مرت دقائق وأنا أتفرس وجوه المارة لعلى أعثر عليه فلم أجد له أثراً وبدأ القلق يتسرب إلى نفسى فأنا فى هذه البلاد غريب بكل معانى الغربة .. لا أعرف لغة أتفاهم بها ولا أثق فى الناس من حولى حتى إننى لا أعرف صفة أو اسم الفندق ولا الحى الذى هو فيه .. فلم يخطر ببالى أن يحدث ذلك لى ثم فوق ذلك فإننا فى المساء وما قيل عن الظلام فى هذه البلاد كثير .. الاستعانة بالله تعالى والدعاء فى مثل هذا الموقف هو الحل الناجع حيث يقول تعالى (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله .. قليلاً ما تذكرون) .. وقلت لنفسى إن التصرف الأمثل أن أتوقف عن المسير وأنتظر فى مكانى .. فهذا يسهل عملية البحث عنى .. وكان الفرج .. والتقينا جميعاً بعد هذه اللحظات العصيبة والتى تعلمت منها أن يكون فى يدى خيط لطريق الوصول إلى البيت ❑

جولة فى النهر

نهر دنيبر ذلك النهر المترامى الأطراف .. كان يلفت نظرى كلما مررنا عليه ؛ فهو عريض متسع ولونه الرصاصى الفاتح يبرق مع أشعة الشمس المنعكسة .. وتنتشر على جانبيه معالم مختلفة للمدينة منها مبان عريقة لم تتح لنا فرصة زيارتها ..

سألت عامر : هل من سبيل لجولة فى النهر فقال إنها فرصة لتشاهدوا المدينة كلها بين ضفتى النهر وراقتنى الفكرة فأنا أهوى السباحة وركوب البحر .. وأخبرنى عامر أن هناك مرسى للقوارب .. فاقترحت على محمد الطيب أن نذهب إلى هناك .. فوافق على مضض .. يبدو أنه لا يحب ركوب البحر .. وذهبنا .. وركبنا جميعاً ؛ خليط من البشر .. واقتربنا من شباب يبدو عليهم أنهم من العرب وتعرفنا عليهم .. إنهم من اليمن وقد أتوا للدراسة .

أخذ محمد الطيب يكلمهم بينما انشغلت بالحديث إلى عامر.. وسألته : لقد سمعت بأنك سبق لك أن تزوجت من هنا .. لاحظت أنه فوجئ بسؤالى ، فسكت برهة ثم قال : نعم .. فقلت : وماذا حدث ؟ قال : افترقنا .. قلت : وما السبب ؟ قال : لقد كانت حماتى امرأة متسلطة تتدخل دائماً فى حياتنا ، ثم إن الطباع والعادات مختلفة . قلت مؤمناً : يبدو أن مسألة اختلاف العادات والطباع هذه تكون فى الغالب سبباً لفشل كثير من الزيجات .. عند اختلاف الجنسيات والديانة ، فإنهم يكونون متشبعين بصفات مادية كثيراً ما تكون السبب فى نفرة أزواجهم من المسلمين الذين تربوا على معانى الكرم والإخوة والعلاقات الاجتماعية المترابطة .. أردف

قائلاً : وهذا تقريباً ما حدث معى.. يبدو أن التجربة بالنسبة له كانت مؤلمة.. فغيرت الموضوع .

مرت المركب ذات الطابقين فى النهر لمدة زادت على النصف ساعة قطعنا خلالها شوطًا لا بأس به ، ومررنا فى أثناء ذلك ببعض المعالم المتميزة للمدينة فهناك كوبرى كبير يمر عليه الترامفاى والسيارات كما أن هناك بعض الكنائس المرتفعة ذات القباب المطلية بالذهب المتقنة البناء والتى يبدو عليها أنها بنيت فى عصور متقدمة .

ومن بعيد لمحنا شواطئ ينزل عندها المصطافون للسباحة أو الاستلقاء على الرمال حيث الشمس التى غابت عنهم لثمانية أشهر .

ملأت عينى من كييف بعد أن عدنا من جولتنا كمودع لتلك البلد التى ذكرتنى بالاسكندرية بجوها الصيفى ، وتوسط ازدحامها ، وتوسط شوارعها كذلك وهى تتميز عن الاسكندرية ببعض شوارع أفسح ، وبحدائق أكثر تنتشر بين البيوت أو هى أشباه غابات عشوائية أحيانًا قد تشعر بالرهبة عند اجتيازها ❑

إلى القرم

فى اليوم التالى حزمنا أمتعتنا وتوجهنا إلى المطار ومعنا عامر .. وكنا قد تسوقنا من سوق المدينة واشترينا بعض الهدايا .. ولذا أصبحت حقائبنا مثقلة بالأطباق الخشبية التى وصفتها آنفاً ، ولما كانت رحلة الطائرة قصيرة فإن الأوزان التى نحملها تجاوزت المسموح به ، وكالعادة أخرج عامر بعض الدولارات فحلت المشكلة بانتقالها إلى جيب موظفة الطيران .. إنه الفراق إذن .. قلت لنفسى وأنا أتأمل وجه عامر البشوش وهو يشد على يدى مودعاً : كم يعلمنا السفر القسوة فتتوطد العلاقة ببعض الأشخاص فلا نرى غيرهم صباحاً ومساءً ثم نفارقهم فجأة تماماً كحال الدنيا التى يقول فيها رسول الله ﷺ (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

على عكس ما كانت الطائرة التى أقلتنا إلى أوكرانيا من الشارقة فكانت تلك الطائرة الجديدة .. فهى كطائرات الخطوط المعتادة بها كراسى لكل الأشخاص ، وبها أحزمة فى المقاعد وبها مضيفات يعرفن بعض الإنجليزية.. وكان معنا كنز كبير هو دارا والذى يعرف بعض الروسية أيضاً !

على مقربة من مقعدنا كان يجلس شاب ذو ملامح عربية وبجواره امرأة روسية ترتدى شورتاً وتتكلم معه أحياناً .. وكان أقربنا إليه مجلساً دارا فنظر إليه ملياً ثم تشجع وكلمه ، وكنت أجلس بجوار دارا ودار حوار بيننا عرفنا من خلاله أنه من فلسطين وقد أتى ليكمل الدراسة هنا ، ومع انخراطنا فى الحديث تجرأت وسألته عن المرأة التى بجواره هل هى زوجته فقال : لا إنها معلمتى وقد جاءت معى لتقدم لى فى الجامعة .. بدا علينا عدم الاقتناع وقلت لنفسى الله المستعان شاب وامرأة أجنبية عنه وتسافر معه

بالطائرة وبالطبع ستقيم معه فى مكان ما ..

كان الأخ هذا من فلسطين وظل يحدثنا عن القضية !

وبعد ذلك أخرج لنا مجلات من جماعة الجهاد من فلسطين وأهداها لنا وقرأت فيها .. أكثرها تتحدث عن الفكر الرافضى وأخبار محلية وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها على فكر جماعة الجهاد التى بفلسطين وارتباطها بإيران ولبنان .

وصلنا بحمد الله تعالى إلى القرم .. مدينة صغيرة هادئة .. وفور وصولنا صباحاً ذهبنا مباشرة إلى المسجد .

إن الدخول إلى المسجد بعد غيبة له فرحة فى قلب المسلم يا ليت من يحرم نفسه من نعمة التواجد بالمسجد وهو يقدر على ذلك يا ليته يدرك تلك الحقيقة ..

يقع المسجد فى شارع جانبى عرضه حوالى ثلاثة أمتار ، وبعد الدخول من الباب الخشبى العريض الذى يرتبط بالسور القديم للمركز تجد بنايتين الأقرب إليك على اليسار هى المبنى القديم وتقع فيها صالة صغيرة وأمام الداخل إليها غرفة للدراسة وعلى يساره يقع المصلى وفيه حجرتان إحداهما للمفتى والأخرى لأعمال الحسابات .

أما البناية الجديدة فلا تزال تحت الإنشاء وهى التى تقع على يمين الداخل من الشارع وتحوى مسجداً كبيراً ذا مئذنة .

بدخول ثلاثتنا إلى المسجد وجدنا مجموعات لقراءة القرآن وحفظه وكان القائم عليها مجموعة شباب انشرحت لرؤياهم وتعرفت عليهم : وائل من فلسطين ، وعبد اللطيف من اليمن ، وصلاح من مصر، وعمر من ليبيا .

كان الإرهاق بادياً علينا من جراء الرحلة فاقترح علينا الإخوة أن نذهب

إلى شقتهم حيث سنقيم معهم .

ذكـرتنى (القرم) بعـواصم بعض المحافـظات المصرية التى تنتـشر فـيهـا الخضـرة أيضاً - كالإسـماعيليـة - فهى صغـيرة الحجم إذا قـورنت بكييف لكنهـا جميلة ، وتـنتشر فـيهـا المصايف والشـواطئ - والتى لم أرها بالطبع لضـيق الوقـت أو لتـجنب الفتن التى لا تخلو منهـا الشـوارع فـمـا بالك بالشواطئ ! ولأن حـجم شوارعـها لا يتعـدى العشريـن متراً عـرضاً - فى أغلبها - فإنك قد تظن أنها أكثر ازدهاراً من كييف وليست كذلك .

كما أن وجود خطوط الترام العادية قد يربك المرور فى بعض الأحيان .. أمـا أشكال الناس فهم خليط بـين الروس والأوكران بأشكالهم الأوربيـة - والأوكـران بالمناسـبة أجـمل من رأيت فى تلك البـلاد شكلاً - والمسلمـين بأشكالهم الفارسية أو التركية أو العربية أحياناً □

العمل

ما إن حللت بالمكان حتى شعرت أننا بدأنا العمل فها هو المسجد وهذه هى المجموعات ثم ها هم مجموعة من الشباب العرب .

وكان أول عمل قمنا به أن زرنا أبا الحسن مع عبد اللطيف اليمنى ذلك الشاب الهادئ المهذب الذى يدرس الطب فى آخر عام له فى هذه البلاد.. وكان معنا دارا والطيب أيضاً وأبو الحسن قريب للمفتى سيد جليل وشقيق زوجته .. فكانت فرصة لتحسس الوضع ورؤية القائمين على العمل عن قرب .. كانت الفكرة التى كونتها عن المفتين ومن حولهم فى هذه البلاد عموماً لا تتعدى عدة احتمالات : أحسنها أن المفتى شخص مجتهد لكنه قليل العلم جداً ، وأسوأها أنه عميل للمخابرات الروسية ، وما بين هذا وذاك درجات من النفعية والمحسوبية وخليط من كل ذلك .. وهذه الصورة وجدتها صادقة إلى حد كبير فى كل البلاد التى رأيتها هنا

فالمفتى إما شخص حريص على الدعوة بيد أنه قليل العلم بعدما حيل بين القوم وإسلامهم عشرات السنين ، وإما هو نفعى بحت وجدها فرصة سانحة ليُنمى رأس ماله على حساب كل شيء حتى الدين ، والثالث يجمع بين ما سبق بالإضافة إلى درجة العمالة مع المخابرات الروسية التى تريد أن يكون لها يد فى تلك البلاد التى انفصلت عنها من قريب .

لم تكن عادتى أن أسيء الظن بمن أراه وهكذا التقيت بأبى الحسن فى مساء الليلة التى وصلنا فيها ورحب بنا الرجل فى منزله المتواضع ، ودار حدثينا عن الدعوة والمسئولية التى تقع على عاتق الدعاة وكان تركيزى أساساً على أن الداعية لا بد أن يعمل بالإمكانيات المتاحة ، وتعلل أبو

الحسن بأن الأموال قليلة .. فضربت له بعض الأمثلة قائلاً : ليس كل شيء يعتمد على الأموال ؛ فهناك الجهد والعمل وإعطاء الدروس لا يحتاج إلى كثير مال بل ولله الحمد إذا اجتهد الداعية ستأتيه إن شاء الله الأموال التى تعينه على الدعوة .. وقلت له : إنه لا تقوم دعوة إلا ببذل ، والدعوة التى يبذل أصحابها لها ويهبوها أوقاتهم وأعمارهم دعوة لن تموت بإذن الله .

وضربت له المثل من إخواننا الدعاة فى مصر كيف أن أحدهم يذهب ماشياً أحيانًا أو يعانى من ازدحام المواصلات العامة ليذهب إلى أماكن بعيدة ويقاسى وعورة الطريق وحر الشمس حيناً وبرد الجو تارة أخرى حتى يبلغ للناس دعوة الله تعالى .

بدا عليه الاقتناع .. وكذلك كل الحاضرين .. فأردفت : والله لقد رأيت بعض إخوانى فى الجامعة يجمعون مصروفات أيديهم القليلة ليطبعوا أوراقاً للدعوة أو ليساعدوا فقيراً أو لينصروا قضية .. لابد من البذل .. وننتظر الأجر والعون من الله ..

وكأن كلماتى كانت رسالة للحاضرين .. سرعان ما رأيت ترجمتها على أفعالهم وابتساماتهم ، وجلسنا بعد ذلك نتجاذب أطراف الحديث مع أكواب الشاى التى أعدها لنا أبو الحسن ..

وبعد ذلك خرجنا باتجاه منزلنا ، وفى الطريق تكلمت مع عبد اللطيف لقد حضر إلى هنا منذ أربع سنوات أى قبل انهيار الشيوعية بحوالى عامين .. وحكى لى شيئاً طريفاً .. فقد كان يسافر كل شهر مرة ليزور أهله فقد كانت تكلفة تذكرة الطيران وقتئذ خمسة عشر دولارا للرحلة (!) سبحان الله أى انقلاب أصاب حياة القوم فى تلك البلاد ❑

المركز الإسلامى

فى الصباح ذهبنا إلى المركز الإسلامى ، وقد أشار علينا شبابنا أن نرتدى الثوب العربى والطاقية حتى نشعر الناس أن هناك شيئاً جديداً عليهم سواء فى الشوارع أو فى المسجد فقد اعتاد الناس هنا على ارتداء القميص والبنطلون وما دام معنا فى الغالب إخواننا وسنركب سيارات خاصة فالخوف من التعرض لمتاعب بسبب ذلك محدود .. ذهبنا مترجلين إلى الشارع الرئيسى لنستقل سيارة إلى المركز .. وكان لباسنا ملفتاً لنظر كثير من المارة .. وعندما وقفنا لنستقل سيارة أجرة .. وهى فى الغالب سيارة خاصة يقبل صاحبها توصيلنا إلى مكاننا مقابل مبلغاً من المال .. لفت نظر الإخوة أن بعض السائقين يرفع الأجرة التى يطلبها لتوصيلنا .. وتعجبوا من ذلك .. فهذا شىء لا يحدث معهم ثم أرجعوا هذا إلى رؤية السائقين لملابسنا وتقديرهم أننا من العرب حيث الأموال الطائلة .

بشىء من الفتور يشوبه الحذر استقبلنا المفتى وجلسنا معه فى حجرته التى بالمسجد ، واتفقنا على أن نعطى دورة صباحية تبدأ من التاسعة وتنتهى فى الثانية عشرة .. وكان المنهج كالتالى :

تفسير قرآن من الزلزلة إلى الناس ، وفقه الطهارة والصلاة ، وقراءة قرآن وتحفيظ ما تيسر ، وشرح عشرة أحاديث من الأربعين النووية ، وشرح نبذة عن الدعوة فى المرحلة المكية .

واختار الطيب شرح الأحاديث وتقاسم معى تحفيظ القرآن وقمت بحمد الله بتدريس الباقى .

كانت حجرة الدراسة متوسطة الحجم وهى التى تقابلك عند الدخول

من البـاب الخارجى للمـبنى القديـم ، وبها دكك يجلس عليـها الدارسـون تقابـلها طاولات قديمـة ، وأمام كل ذلك سبورة مـتوسطة الحـجم أمامـها منضدة وثلاثة كراسـى يجلس عليها المعلم والمترجم .. كـان عدد الدارسين حوالى خمسـة عشر دارساً ثمانية رجال والباقى نسـاء تتراوح أعمارهم من ٢٠ : ٦٠ عامًا .. وكـانت عملية التدريس شـاقة وتأخذ وقتاً طويلاً وتعـتمد أسـاسـاً على إلقـاء جـملتـين أو ثلاثة ثم نـنتظر حـتى يقـوم الأخ المتـرجم بترجمـتها ثم الاستمـرار فى الشرح وهكذا وتواجهنا أحياناً بعض العـقبات من عدم وضـوح الفكرة للمتـرجم فأقوم بشـرحها له ثـم يعيد صـياغتـها ، وأحيـاناً يأتى الكلام حاوياً لتشـبيه يصـعب على المترجم إيصـاله وتارة تتوه الفكرة من الذهن أثناء الترجمة أو مع تعليق أحد الحاضرين .

المهم أنه بدأت ثمـار تلك الجلسـات تتـضح من الحـرص الذى كنا نراه للدارسين ❑

المخيم

فى أثناء ذلك أخبرنا الإخوة بأن هناك معسكراً يبعد حوالى سبعين كيلو متراً عن المدينة تقيم فيه أكثر من عشرين أسرة ، وما يقرب من مائة فتاة وامرأة وعرض علينا الشباب الذهاب إلى هناك لإلقاء محاضرات .. تناقشت مع الطيب فى الموضوع لكنه رفض .. وقال كيف سنذهب إلى هناك ونحن هنا لنقيم الدورة ؟

قلت : ما المانع أن نذهب بعد انتهاء الدورة ؟

وقد كان فاتفقنا مع صاحب سيارة لادا لتوصيلنا كل يوم مقابل حوالى ٥٠ دولاراً يومياً .. وكان المبلغ كبيراً ولكن الفائدة كانت أكبر والذى اعتدته هنا أن الناس يأخذون أكثر مما يعطون .. وإن كان البعض يعطى ولا يأخذ فنحن فى الغالب الذين كنا ننفق على كل ساكنى الشقة معنا وبالذات على شراء اللحوم وما أشبه ..

لقد كان الأمر شاقاً فما أن ننتهى من الدورة حتى نسارع بالعودة إلى المنزل لنصلى الظهر بعد حوالى نصف ساعة من وصولنا ولم نكن ننتظر بالمسجد لأنه لا وقت لدينا لانتظار الصلاة بالمسجد ثم نعود للمنزل للغداء لننطلق بعدها للمخيم ولا سيما أننا نمثل أغلب أهل المسجد لذا فكنا نصلى فى البيت ولا أحتاج بالطبع إلى التأكيد على أنه لا توجد أى مساجد أخرى فى القرم - ذات التواجد المسلم - إلا هذا المسجد وبعد أن ننتهى من الصلاة نجد الغداء قد أعد .. فدارا طباخ ماهر فعلاً وهو يحب الطبخ .. وفى الحقيقة كان يكفينا هذه المؤونة .. فما أن نحل بالمنزل حتى نشتم رائحة الطعام الشهى .. فقد ذهب عبد اللطيف ودارا فى ثانى أيام تواجدنا بالمنزل

واشتروا لنا خروفاً صغيراً وذبحوه .. وقد تكلف ذلك عشرة دولارات فقط!! فما أرخصه .. وبذا ضمنا غداءنا لمدة أسبوع على الأقل .

وبعد أن ننتهى من الغداء .. ننام قليلاً .. لمدة لا تزيد عن ساعة .. ثم نستيقظ على عجل لنجد السيارة بانتظارنا .. فنقطع المسافة فى أكثر من ساعة لنصل على صلاة العصر فنصلى ثم نعطيهم محاضرة .. كنت أذهب أنا والطيب .. وعرضت عليه أن يحاضر فيهم فاعتذر .. واضطررت لإعطاء المحاضرات وحدى .. وكان يترجم لى عبد اللطيف وأحياناً طبيب عراقى متزوج من أوكرانية .. ومقيم منذ فترة طويلة بالقرم .

ما أسعدنى بتلك الغنيمة .. تجمع كبير فى مكان واحد .. لذا رتبت عدة محاضرات رأيت فيها أهمية لهم فكانت الأولى عن القرآن والسنة والفرق بينهما ، والحديث الصحيح وأهمية اتباع السنة ، وفى الأسئلة كانت الردود على الأسئلة المتعلقة بالموضوع فتشعب الكلام عن الاختلاف بين العلماء ومبرراته .. والفَرق بينه وبين الاختلاف بين الفِرق .. وأذكر ذات مرة أن حدث لبس فى الترجمة فى قضية حساسة عن اختلاف العلماء واستعراض للمذاهب الفقهية فترجم الأخ عبد اللطيف خطأً فوقف ابنه الطبيب العراقى وعدل له الكلماتَ الروسية .. وبالرغم من تمكن عبد اللطيف بالذات من اللغة إلا أن الطبيب كان أكثر تمكناً .. إن عملية الترجمة عملية شاقة ومرهقة .

فى المحاضرة الثانية كان هناك مطراً خفيفاً فجلسنا بعد الصلاة فى قاعة الطعام ، وتحدثت عن الإيمان باليوم الآخر ومراحله .. وكانت بفضل الله محاضرة طيبة حتى إن امرأة كبيرة فى السن قالت : لم أسمع بهذا الكلام من قبل وكانت بادية التأثر ، وانبرت امرأة أخرى بعفوية فقالت مقترحة : إن هناك فتيات كثيرات كما ترون فلم لا تتزوجون منهن .. وضحكت : فكرة

لطيفة ولكن عواقبها وخيمة .. هكذا قلت ..

وتحدثت فى محاضرة أخرى عن المرأة المسلمة وتكريم الإسلام لها وتعرضت خلالها لموضوع حجاب المرأة المسلمة .

***

دعانا رجل مسن إلى الشاى فى حجرته بالمخيم .. فأجبنا الدعوة وذهبنا أنا والطيب ومهندس فلسطينى مقيم هنا ومتزوج من تترية .. وهم المنحدرون من التتار الغزاة وقد أسلموا وحسن إسلامهم ؛ فهم من أفضل القوميات تمسكاً بالإسلام فى روسيا.. المهم ذهبنا إلى هناك وجلسنا معهم.. سبحان الله كم هو عظيم ذلك الإسلام .. فبالرغم من عدم معرفتنا للغة نتفاهم بها ؛ إلا أن المودة الصادقة تنقل الإحساس .. وحتى بالرغم من تواضع حال مضيفنا – إذ قدم لنا الشاى فى برطمانات زجاجية – إلا أن الكرم هو سماحة إسلامية فى قلوب المؤمنين الذين يجودون بما وجدوه ، وظلت زوجته العجوز ترحب بنا وهى تبتسم وتسألنا الدعاء .

إن العرب لهم مكانة خاصة فى قلوب غيرهم من المسلمين فيا ليتهم يدركون أنهم ينظر إليهم على أنهم أبناء الصحابة الكرام فيكونون على مستوى المسئولية فى هذا الأمر .. كم أتنهد حسرة إذا بلغنى ما قد يفعله بعض العرب فى بلاد كالغرب أو تلك البلاد فالبلاء والمثل السيئ يطول سمعة الإسلام .

لم نكن وحدنا فى المخيم .. بل كان لنا جزء منه .. وكان الروس يأتون أيضاً إليه ليستجموا .. وقد أقاموا حفلاً موسيقياً على مقربة منا .. كما أن هناك بار فى أول المخيم .. وكانت الحمامات قريبة منه .

وبالطبع لم تكن هناك مياه موصلة إليها .. فإذا أردت أن تقضى حاجتك – أعزك الله – فإنه يجب عليك أن تحضر ماءً لتستخدمه وهذا مفهوم ..

ولكن غير المفهوم أن المراحيض غير ذات أبواب بمعنى أنها مغطاة بستارة من المشمع الذى انثنى من أطرافه إلى الداخل فأصبح يكشف عن اليمين والشمال ما يوازى نصف المرحاض ، ولما أبديت تعجباً من ذلك قالوا لقد غطوها من قريب .. إذ كانت قبل ذلك مكشوفة تماماً .. وكانت مختلطة ! ! فالحمد لله الذى عافانا .

***

تمشيت مرة خلف المخيم .. فإذا بى أكتشف ممراً مائياً ضحلاً ووقفت أتأمل بعض الأسماك الصغيرة التى تسبح فى قاعه ، وبعض هواة الصيد الذين يمارسون هوايتهم .

إن التأمل فى خلق الله والتنعم بالنظر إلى الطبيعة يصفى النفس ويهذبها، وعزمت على أن أعبر إلى الضفة الأخرى منه فى وقت لاحق .. وقد كان ذلك فى اليوم التالى بعد الظهر .. فاخترت مكاناً ضحلاً وعبرت فوق الصخور إلى الضفة الثانية .. إنها غابة صغيرة وظللت أمشى لفترة .. فوجدت شخصاً من بعيد اقترب منى وبدأت أتبين ملامحه .. إنه رجل على ما يبدو .. شاب فى الثلاثينات .. يبدو لى أنه غريب الأطوار .. كلا إنه امرأة ترتدى زى أشبه بالرجال ولها بنيتهم كذلك .. كانت تنظر إلىَّ بريبة فيها تحد .

فاكتفيت من نزهتى اللطيفة بما مر بى .. وعدت سريعاً أستحث خطاى ، من يدرى فقد تكون من آكلى لحوم البشر ! ❏

حوارات وهموم

في جلساتنا المسائية في شقة عبد اللطيف تدور حوارات مختلفة يكون أغلبها حول واقع الأمة .. وأتاحت لي تلك المحاورات اكتشاف بعض الأحداث والأحوال للأمة فمثلاً الأخ وائل الفلسطيني الذي يدرس الطب تخلف بضعة أيام عن زيارتنا فسألت عليه ، فقالوا : إنه متزوج من تترية - كما تعرف - وأنها وضعت له طفلاً هذا الأسبوع ولكن بعملية قيصرية وهو يعتني بها بعد الولادة .. فجرنا الحديث إلى الزواج من أهل تلك البلاد فقلت : من العادات الإسلامية التي تبدو بديهية لنا - كقوامة الرجل في بيته مثلاً - وهذا شيء مستغرب في بلادهم .

قال صلاح : إنني في الحقيقة أتفق معك في ذلك ، ولكن دبرني فأنا كما تعلم مغترب هنا والفتن محيطة بي ، والحال كما تعلم في الزواج من مصر لا بد من مصاريف كثيرة وتذاكر بالطائرة .

فكرت في كلامه .. نعم .. الفتن هنا كثيرة .. والمصاريف إلى بلادنا كبيرة ولكن ..

دخل أحد الشباب وتعرفنا عليه اسمه محمد دندل من الأردن فشاركنا الحديث .. فقلت صحيح إن الزواج هنا ميسور ولكن لا تنسوا أن توابع ذلك الزواج كبيرة ..

قال دندل : أوافقك فإن الأمر يتطلب بعد ذلك الاستقرار في مكان ما إما في بلدك وإما في بلدها وهذا يسبب لأحدكما ضيقاً .

قال صلاح : وما المانع أن نتفق على ذلك ؟ .. فهم هنا يرحبون بالانتقال من البلد بسبب العوائق الاقتصادية .

قلت : ولكن إذا طال الفراق بدأت الأشواق .. وعموماً ليس هذا هو المحظور الوحيد .. عندك مثلاً - علاقتها - مع أهلك وخصوصاً الوالدة فالأم تريد أن تفرح بابنها .. وأن تكلم زوجه وتحادثها وهذا لا يتأتى مع اختلاف اللغة والعادات ، وكذلك الأمور الرسمية من الإقامة وتسجيل الأولاد .. ولا سيما فى حالة حدوث خلاف أو شقاق لا قدر الله وهو أمر لابد من التفكير فيه أيضاً .

بعد قليل دخل علينا وائل نفسه وبعد أن رحبنا به وباركنا له على رزق الله له بالولد .. جلس معنا وانضم تلقائياً لحديثنا الذى كان حامياً ، فقال : أنا ولله الحمد مستريح مع زوجتى ، فأسرتها من أفضل الأسر هنا تمسكاً بالدين ، وهم كذلك يحترموننى ويحرصون على راحتى .. وهى كذلك بفضل الله مطيعة لى .. ولكن مع ذلك لو كان أتيح لى أن أتزوج من عربية - من فلسطين أو غيرها - لما اخترت الزواج من تترية .. قلت لم ؟ قال : اللغة مثلاً .. ليس هناك تمكن مشترك من اللغة بحيث نستطيع من الحديث معاً فى ما نود أن نتكلم فيه .. أريد أن أحدثها عن آمالى .. آلامى .. وما مر بى ولكن تقف اللغة حائلاً .. بالإضافة إلى أن الالتزام الدينى هنا لا يعدو أن يكون كحال عَامة الناس فى بلاد العرب ؛ فبسبب قرب العهد بالشيوعية يصبح كل شىء جديداً عليهم ومستغرباً .. قال صلاح : وما الذى دفعك إلى الزواج إذن ؟ .. قال : إننى كما تعلمون أدرس الطب هنا ، وقد كان والدى يعمل فى الكويت .. وقد قضيت شطراً كبيراً من حياتى هناك .. ولكن لما حدثت حرب الخليج الثانية أخرجنا من الكويت عنوة .. ولم يكن مسموحاً لأبى أن يقيم فى أى من الدول المعتادة لإقامة الفلسطينيين .. تنهد ثم قال : لذا فقد دخلت أسرتى إلى العراق خلسة .. وليس لديهم إقامة رسمية فيها .. فأنا الآن ليس لدى جواز صالح لأسافر إليهم ولا أملك

القدرة على تجديده إذ ليس لدى رخصة إقامة فى أى من البلاد التى تعطى وثائق سفر لنا .. وهكذا كما ترون تخرج أسرتى لتقضى حوائجها خلسة حتى فى العراق خشية أن تمسك بهم الشرطة هناك أما أنا فلا أستطيع السف.. تأثرت وقلت : إذن فأنت لا تستطيع التحرك بسبب عدم امتلاكك لجواز سفر صالح ؟

قال : نعم فقد كنا نأخذ وثائق بسبب الإقامة فى الكويت .. قال عمر : ولهذا السبب تزوجت من هنا ؟ ..

قلت : سبحان الله .. إنها توابع الشقاق الذى خلفته حرب الخليج وحدِّث ولا حرج عن الحدود التى يضعونها بين الأمة .. فلا بد من الإقامات والتصريحات .

قال وائل : لو تعلمون يا إخوانى كيف أن المظلوم يشعر بالقهر لا سيما وهو لم يقصر ولم يذنب .. فأنا نشأت فى الكويت وأحبها بلا شك .. وإن كان فى بعض أهلها غلظة وتكبر .. إلا أننى ما زلت أحبها .. ومع ذلك أوخذت أنا وأسرتى على أمور لم نفعلها ولم نوافق عليها ، لقد سعى والدى كثيراً .. وقال والله لم نتعاون مع الغزو ولم نرض به .. ومع ذلك لم يصدقه أحد لقد عشنا أيامًا فى أثناء الغزو على أمل الانفراج وفى النهاية كان جزاؤنا الطرد .

المرارة تبدو واضحة من لغته .. نعم إنها مأساة أن يتشرد الإنسان من مكان نشأ فيه وليس بسبب تقصير أو جريمة ؛ وإنما بسبب مواقف سياسية ليس له يد فيها ❑

زيارة لصديق

دعانا (دندل) إلى بيته فى سكن الطلاب وقال مشجعًا لنا إذا أقمت يوم الجمعة فسوف أدعو الطلاب هنا إلى الصلاة ليخطب أحدكما - أنا والطيب - وتكون فرصة للدعوة والالتقاء ببعض الطلاب العرب . ثم تتفضلون بزيارتى لتناول الشاى فى حجرتى رحبنا بالفكرة .. وذهبنا .. إنه سكن للطلاب كالمعتاد فيه نساء لا تعرف عملهن وفيه موظفون .. لفت نظرى قبل دخولى إلى المبنى ثلاث نساء يجلسن على كومة رمل وقد بدا عليهن الإرهاق من عناء العمل فقد كان واضحًا من ملابسهن المتسخة بالأصباغ أنهن يعملن فى المعمار وأنهن يجلسن لأخذ قسط من الراحة ، ولك أن تتخيل أن تعمل امرأة فى هذه النوعية الشاقة من الأعمال وتتعرض للمخاطر والجهد و(تتشعلق) إحداهن على جدار المنازل من الخارج وتتعرض للمخاطر والجهد البدنى العنيف وهو ما لا يتناسب مع قدراتها البدنية ، ولا مع أحاسيسها المرهفة . هززت رأسى شفقة وأسى : آه من أفكار البشر .. كمّ عانى منها غيرهم .. فأفسدت حياتهم وحملتهم مالا طاقة لهم به .

دخلنا إلى المسجد وهو ليس إلا حجرة كبيرة فى المبنى الطلابى . فُرشت (بموكيت) من نوع رخيص .. والمعتاد أن تكون الأماكن مفروشة بسجاجيد قديمة أو تكون على البلاط فكأن هذا احتفاء بالمسجد .

وقدمنى (الطيب) لأخطب بهم فخطبت عن شرح حديث (لا نزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه)

وأشرت فى الشرح إلى يوم القيامة وأهمية استعدادنا له .. وأهوال ما فيه ، عرجت على أهمية العمل واستغلال الشاب لمرحلة شبابه فكانت بفضل الله خطبة موفقة ، فلما انتهينا أحاط بى مجموعة من الشباب ليتعرفوا علينا مازلت أذكر أحدهم واسمه عدى الكيلانى - فلسطينى - كان من غير هذا المكان إذ جاء زائرًا وظل يلح علىَّ لأزورهم فى مكانهم الذى يسمى (خاركوف) فقلت له أعطنى العنوان وإن تيسر الأمر زرناكم إن شاء الله .

دخلنا حجرة دندل ولم يكن ما يلفت النظر إلا أن هناك سخانًا لإعداد الشاى من التراث فى تلك البلاد ، وهو عبارة عن هيكل من (الألمونيوم) يرتفع وكأنه قامة طفل صغير وبداخله مكان لنار هادئة وبه (صنبور) يفتح عند الحاجة لأخذ الشاى .. إن (دندل) يستعد للسفر بعد أن انتهى من الدراسة ولذلك فهو يعيش بروح المسافر وليس بروح المقيم ولما تكلم صلاح كعادته عن موضوع الزواج قال دندل مداعبًا : إن هناك فتيات رآهن فى المسجد محجبات فما رأيك فى واحدة منهن انبرى صلاح يشرح أنه بالفعل يفكر فى ذلك .. وابتسمت وأنا أتابعه ❑

الأبواب المغلقة

الجمعيات الإسلامية تعمل بحذر شديد .. خوفًا من عصابات المافيا التى ما أن تشعر بوجودها حتى تسارع لابتزازها باعتبار أن هذه الجمعيات توزع أموالاً ، هذا بالإضافة إلى أن كل من يعرف بمكانها يسارع بادعاء الفقر أو الحاجة وقد يكون صادقًا ولكن أنّى لهم أن يكفوا هؤلاء جميعًا هنا ، ما كان يدور بذهنى وأنا أقف مع عمرو عبد اللطيف أمام الشقة التى اتخذتها جمعية خيرية سعودية اسمها (سار) وأظنها تابعة للمليونير السعودى الراجحى جزاه الله خيرًا .. فقد كان باب الشقة مغلقًا وليس مكتوبًا عليه أى عنوان وإنما زرنا المكان بناءً على اقتراحى للتعرف على الشباب هنا .. دخلنا كان بالشقة مجموعة من الشباب السودانيين الطيبين سرعان ما ألفناهم وألفونا ، وطلبوا منى أن أتكلم بموعظة أو درس ففعلت وصلينا معًا العشاء ثم تعشينا سويًا ، وعندما عدنا ليلاً وعلى أول شارعنا كانت هناك مجموعة من الشباب الروس طوال القامة بينهم فتاة أرادت أن تكلمنا فماذا قالت ..؟ قالت لعبد اللطيف بصوت أجش : أمعك سجائر ؟ قال : (نيت) أى لا بالروسية وانصرفنا من أمامهم .. يبدو أنهم سكارى .

وحكى لى عبد اللطيف كيف أن أحدهم عرض عليه أخته وظل يغريه ويقول إنها ذات خبرة (!) وستسعدكم كثيرًا ❑

هموم كردية

جمعتنا الجلسة المسائية فى ليلة من الليالى على العشاء ..وكان الشباب قد لاحظوا على دارا شيئًا من العجمة فى اللسان كانت تتبدى فى تذكيره بعض ما أُنّث أو تأنيثه بعد ما ذُكِّر .. لم أكن أحب منهم ذلك إذ كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض كلما أخطأ فى التذكير أو التأنيث فنصحتهم بعدم جواز ذلك ، وحكى لنا دارا أنه كان تاجراً غنيًا يتاجر فى السيارات إلى أن حدث الاجتياح من الجيش العراقى بأوامرصدام .

تذكر ذلك فى تأثر ، وقال والدموع تترقرق من عينيه : لقد كان شيئًا بشعًا فقد فررنا إلى الحدود التركية أنا وإخوانى وأسرتى وأمى وجدتى ، وكانت الجدة شبه مقعدة فكان إذا حدث قصف خرجنا من السيارات التى نستقلها لنتوارى خلف ما يصلح لذلك من الصخور أو غيرها فكنا مع العجلة لا نستطيع أن ننقلها من مكانها فليس هناك وقت لذلك ، وكانت هى تشجعنا على أن نتركها فى مكانها إذ إنها تدرك أن محاولة مساعدتها يجعلنا جميعًا هدفًا سهلاً ، فكانت تجلس فى السيارة حتى ينتهى القصف لنعود إليها ... وذات مرة كان القصف شديداً واختبأنا وتركناها فلما عدنا إليها وجدناها قد ماتت .. ساد الصمت الحجرة . فقال أحدنا : هل أصيبت ؟ قال : لا .. "ماتت" ، قلت : يرحمها الله ما كان أحوجها فى تلك اللحظات إلى من يكون بجوارها .

سألته ماذا فعل (صدام) فى ذلك القصف ؟ أجابنى بأسى : لقد كان يسمى هذه العمليات (الأنفال) إذ يقول للجنود إن تلك البلاد لكم .. اقتلوا الناس وخذوا الأموال وبالفعل قامت خمس عمليات رئيسية بدأت تحديداً

فى ٨/ ٩ / ١٩٨٨ وأنا أتذكر اليوم فهو جزء من كيانى . أما تلك العمليات فهى :

(١) عملية (دربندى خان) بعمق ٥٠٠ كم الحدود الإيرانية وبطول ٦٠٠ كم بدأت برش كيماوى على الناس ثم هجوم الجنود بعد ذلك .

(٢) (قراداخ السليمانية) وبعمق داخلى ٤٠٠ كم .

(٣) (كانى ماس زاخو) عمق ٣٥٠ كم بطول الجبهة ٥٠٠ كم .

(٤) منطقة (أحمد آوا) عمق ٢٠٠ كم وطول ٤٠٠ سم

(٥) وأخيرًا منطقة (بالى سان) عمق ٢٠٠ كم داخل العراق نفسها .

قلت : سبحان الله وكأنك تحفظ هذه الأرقام .

قال : نعم إنها مأساتنا .

قلت : وكم نجم عن ذلك من الدمار قال ليس هناك أرقامًا واضحة أو مستقلة ولكن التقديرات المبدئية أن حوالى ٢٨٥ ألف شخص فقدوا وأسروا فى تلك العمليات وتشرد الباقون ..سكت دارا وتركنا نهبًا لأفكارنا، أما أنا فسرحت فى همومى .. إن هذه الرحلة بها الكثير من الأحداث والوقائع والحديث عن آلام الأمة ❑

القرم وداعاً

انتهت مهمتنا فى القرم (أو الكريم كما يطلق عليها الناس هنا) بانتهاء الدورة وانتهاء مخيم النساء فكان علينا بعد ذلك الرحيل إلى (موسكو) حتى نلحق ببقية المجموعة لنستكمل مهمتنا هناك .. فوجئت برغبة (الطيب) فى أن يحول وسيلة الانتقال إلى موسكو من الطائرة إلى القطار .. فقد قال لى : إنه لم يركب القطار فى حياته وإنه يرغب فى تجربته .. قلت له : المسافة بين القرم وموسكو كبيرة فلم لم تطلب ذلك فى المسافة الصغيرة التى بين القرم وكييف ؟ سكت واضطررت آسفًا ..أن أنزل على رغبته .. وحجز لنا وائل تذاكر السفر ثلاثة .. لى والطيب ودارا .. ويتندر (وائل) بما ذكرته له بائعة التذاكر إلى أن قالت له الثلاثة من العرب سيركبون ؟ قال : نعم.. قالت وأعينهم سوداء وشعورهم كذلك قال : نعم .. قالت : ياللروعة !

تجولنا فى السوق قبل السفر إذا كان موعد السفر ليلاً .. البضائع أغلبها مستوردة .. ليس هناك شىء من إنتاج البلد إلا ما ندر .. ولفت نظرى أن دراجات الأطفال التى صنع البلد كانت غريبة وبدائية كمثل تلك التى يركبها بائعو الألبان فى مصر ، بيد أنها صغيرة الحجم ، وسألت عن سعرها فقال لى : إنه يوازى ٥٠ دولارًا .. مبلغ كبير .. مازال معى بضع ملايين من (الكوبونات) فاشتريت بعض الهدايا البسيطة .

وكان معى عمر الليبى فسألته : لم أتيت إلى هنا ؟ قال لقد سمعت وأنا فى ليبيا أن هناك دعوة طيبة وصحوة إسلامية كبيرة فى (طاجكستان) وقد أردت أن أذهب إلى هناك فمررت هنا من أجل التأشيرة ولكن لم أتمكن من الدخول إليها بسبب الحرب الدائرة هناك .

دخل علينا الليل سريعًا .. حانت لحظة الفراق لتلك المجموعة المتآلفة .. وجاءوا معنا جميعًا ليودعونا قبل السفر فقد كان القطار سينطلق فى منتصف الليل تقريبًا محطة القطار - مرة ثانية - مرتع غريب لكل من ليس له مأوى حتى الكلاب الضالة ، رائحة الخمر تنبعث من كل مكان ، المسافرون يتحركون يمينًا ويسارًا .. أحدهم كان يقف مبرقًا عينيه فينا ويشرب (الفودكا) .. شيء يشعرك بالاشمئزاز والرهبة معًا أن يكون أكثر من حولك من السكارى المتشردين ..

دخل القطار إلى المحطة .. وامتدت الأيدى مصافحة ومودعة.. ما أسرع الفراق بعد الألفة واللقاء ولكن هذا حال الدنيا .. كم جلسنا سويًا .. وتعارفنا وتآلفنا ..ولكن هل سنلتقى مرة أخرى .. الله أعلم كان عمر قد أهدانى شريطًا لأناشيد إسلامية .. تذكرت فيه مقطعًا وأنا أودع شبابنا .. (هل ترانا نلتقى أم أنها ..كانت اللقيا على أرض السراب ثم ولت وتلاشى ظلها ..واستحالت ذكريات للعذاب) وكدت أبكى تأثرًا ❑

إلى موسكو

آه أيتها المدينة المتعبة .. تأبين أن أذهب إليك مرتاحًا .. هانئًا ما إن دخلنا إلى غرفة النوم بالقطار حتى أدركت ذلك .. كان علينا أن نغلق بابنا علينا حتى لا نسرق .. فإذا أغلقناه .. اشتد الحر بسبب النفس وضيق الحجرة .. وتذكرت نظريتى فى هذه البلاد التى خصصت فقط للبرد دون الحر ، كان علينا أن نمضى ليلتين ويومًا كاملاً فى تلك الحجرة ذات الأسرة الأربعة على اليمين والشمال كما وصفتها آنفًا وبينهما طرقة صغيرة لا تكاد تكفى واقفًا فيها .. ولكن مع التعب ومرور الوقت اضطررت للنوم واستيقظت صباحًا بسبب سعال .. يأتينى أحيانًا من كتمان النفس .. فخرجت من الحجرة لأقف فى الطرقة .. وأردت أن أذهب إلى الحمام ، للقطار مشرفة كانت تجلس فى حجرتها على مقدمة القاطرة تلعب الورق مع بعض زملائها .. وتوضأت ثم أيقظت شبابنا لنصلى .. لم نجد مكانًا لنصلى فيه إلا فسحة بين القاطرات وجدنا المسافرين يقفون فيها ليدخنوا السجائر هل هى مخصصة لذلك أم أن الغرف لا تصلح لضيقها .. الله أعلم .. فكنا نصلى فى ذلك المكان .. وينظر إلينا الناس باستغراب .. ماذا نفعل ؟

مع أسفار الشمس واشتداد أشعتها أصبح الجلوس فى الحجرة لا يطاق بل الطرقة نفسها التى تربط بين حجرات القاطرة لا تطاق إذ إن أغلبها مغلق الزجاج وتذكرت (الفرن) الذى سبق أن ذكرته عند ركوبنا الطائرة من الشارقة .. بالطرقة شبابيك مغلقة ولها محابس المفترض أنها تفتح وحاولت ذلك فلم أستطع ، وأخيراً أفلحت مع أحدها وقضيت عامة نهارى واقفًا أمامه أستنشق الهواء ولا أجرؤ على الجلوس فى الحجرة ، واقفًا أمامه استنشق الهواء وأنظر إلى الطريق هناك مزارع كثيرة وكبيرة لنبات تباع

الشمس تكسو الأرض باللون الأخضر كبساط كبير ممتد موش بالأصفر الكنارى اللون الزهرة ومع جمال الطبيعة يتذكر الإنسان ما يحب فطفت أسرح بخيالى عبر أشواق لا تهدأ للأهل والوطن .

وقف القطار فى إحدى المحطات وجاءت البائعات المتجولات يعرضن علينا بضائعهن من النافذة.. وأكثرها زجاجات فودكا أو سجائر أو لحم محفوظ أشبه ما يسمونه (المرتديلا) .. (أسباسيبا) أى شكراً بالروسية ظللت أرددها كلما عرض علىّ شيء من تلك البضائع .

تعرفت على شاب مغربى متزوج من روسية حسب ما قال لى لقد انتهى من دراسته وهو ذاهب إلى موسكو ليأخذ شهادته ، وكمثل ما حدثنا الأخوة فى (كييف) مازالت الجامعات ترتبط بموسكو ، والغريب أنه لما فشل فى الحصول على التأشيرة غامر بقطع الطريق بدونها .. عرضتف عليه أن يصلى معنا . فقال : إنه منقطع عن الصلاة بسبب تقصيره فيها . فظللت أحدثه عن الصلاة وأهميتها واشترك معنا الطيب حتى توضأ وصلى معنا .. وظل يومه يمر علينا ويكلمنا ..ويصلى وقت الصلاة ، قلت للطيب : كم يخسر المسلم بإقامته بين الكفار ..

كان الشاب يقيم فى غرفة القطار مع فتاة روسية جميلة وأمها وأشفقت عليه من الفتنة ، وعرضت عليه أن يأتى ليقيم معنا فى حجرتنا فإن بها مكانًا خاليًا ولكن استحيا ورفض .. بعد ساعات وقف القطار فى محطة رئيسية وكان صاحبنا المغربى يتوقع أن يكون هناك تفتيش على الجوازات فيها .. لذا فقد سارع بالاختفاء فى المحطة إلى أن تحرك القطار مرة أخرى .. والحقيقة لقد رأيته من نافذة القطار وهو يكلم الفتاة الروسية التى تشاركه الغرفة وعلى شفتيه ابتسامة شهوة ..قلت لنفسى وهذه إحدى مصائب الغربة .. فتن فى كل مكان لم يمر أى من مسئولى التفتيش حتى تحرك القطار.. ولكنهم بعد تحركه مر اثنان من الجنود الروس ، طرقا الباب علينا

فى الحجرة وكنا نأكل الجبن وجبتنا الوحيدة أثناء السفر فتكلما مع دارا لحظات وطلبا أن يريهما الجوازات .. فأراهما جوازه فقط وهممت أن أخرج جوازى لكنهم اكتفوا بذلك ومشوا .. أشفقت على المغربى الذى لايحمل تأشيرة دخول .. صحيح أنه لم ينظر الموظفان إلى تأشيرتنا إلا أنه قد يطالب بذلك.. وشعرت بقلق عليه إذ لم يظهر لفترة لكنه مر علينا قبل العشاء .. وصلينا جمعًا وقصراً كعادتنا ، ثم وقفت قليلاً فى النافذة وكأنى أختزن الهواء النقى . قبل أن أنام فى هذا الفرن الصغير .

مع الفجر استيقظت وصلينا بسرعة فقد كان القطار على مقربة من موسكو - نزلنا ومعنا حوائجنا .. وحاول دارا أن يؤجر لنا حمالاً لنخرج أمتعتنا إلى خارج المحطة .. ولكنه وجد أنهم يطالبونه بأسعار عجيبة تصل إلى ٢٠ دولاراً لمجرد إيصالها من داخل المحطة إلى خارجها رفضنا ذلك الابتزاز وتعاونا سويًا على نقلها خارج المحطة . لقدكانت ثقيلة ولكن يأبى المرء أن يعطى إلا ما أحس بقيمته لديه ، وإذا كان إخراج الأمتعة يتكلف ما ذكرته فإن استئجار سيارة يتكلف أضعاف ذلك بالطبع .. وهذا ما أخبرنا به (دارا) عندما ذهب ليبحث عن سيارة وإذا كنا رفضنا الابتزاز فى نقل الأمتعة فإنه من الصعب ألا نقبل بذلك فى مسألة السيارة ؛ فمهما كان المكان قريبًا إلا أن السير بتلك الأمتعة الثقيلة هو ضرب من العذاب بلا شك، لكن دارا خفف الأمر بأن ابتعد قليلاً عن المحطة واستوقف سيارة وتفاوض مع راكبها على مبلغ أقل من نصف ما طلبه السائقون على باب المحطة .. ولم يكن هناك ممراً نعرفه يصل بين طرف المحطة الذى نزلنا إليه والطرف الآخر الذى به باب الخروج فاضطررنا لحمل الأمتعة عبر القضبان!

ما إن خرجنا بالسيارة حتى تذكرت شيئًا هامًا .. ها نحن داخل موسكو.. ولكن دون أن نمر على أى جوازات لقد كانت المحطة بلا جوازات.. لقد دخلنا موسكو دون أى أختام للدخول ! ❑

بلد الغربان .. والكلاب

أول شيء يلفت النظر فى (موسكو) هو انتشار الغربان بأعداد كبيرة كانتشار العصافير فى غيرها من البلاد .. كما أن للكلاب هنا شأنًا إذ يعتبر الناس هنا تربيتهم هواية لطيفة حتى لقد كنت أسأل نفسى هل عدد الغربان والكلاب هنا أكثر من الناس .

الشوارع عريضة والأبنية متشابهة والمدينة تذكرنى بالقاهرة فى ازدحامها إلا أن شوارعها أعرض وحدائقها أكثر (بوتانيتشكى ساد) هو اسم المنطقة التى يقع فيها الفندق الذى أقمنا فيه مع بقية أفراد المجموعة فى ضيافة هيئة الإغاثة الإسلامية عندما دخلنا إلى الفندق ..كان الوقت مبكرًا فلم نشأ أن نوقف أحدًا لذا فقد نمنا فى مدخل للاستراحة كان معدًا للصلاة .. ولم أشعر إلا بيد الأخ محمد إبراهيم وهو يوقظنى بعد ما رآنى .. رحب بى ورحبت به ما أجمل أن تلتقى بمن تألفهم فى بلاد الغربة .

ودخلت إلى غرفة محمد وجلسنا نتجاذب الحديث سويًا :

– كيف حالك يامحمد سلامات يارجل ، كأنى لم ألتق بك منذ دهر .

– وأنا كذلك كيف حال أهلك فى الاسكندرية .

– الحمد لله .. والله لم أتصل بهم منذ فترة فالحال كما تعلم وليس يسيرًا أن تجد أداة للاتصال .

– تنهد فى حسرة وقال : وأنا كذلك لم أتصل بهم منذ فترة .. ثم ابتسم وأضاف اليس لطيفًا أن أقابلك هنا فمجموعتنا كانت ستتوجه إلى الدول الغربية والشمالية من الاتحاد السابق ونحن هنا لنرتب الدورات مع الإدارة قبل انطلاقنا ، وبالمناسبة فبقية مجموعتكم لا تزال هنا وهم يقيمون دورة فى

إحدى المدارس المستأجرة واليوم هو يوم اللقاء الختامى فما رأيك أن نذهب إليهم .

قلت : لا مانع ولكن دعنى آخذ قسطًا من الراحة قبل الذهاب .. قال ليس قبل أن نفطر .

ضحكت وقلت : ما هذا الكرم يا محمد ليس من عادتك ، قال : وسأحضر أفضل ما لدى .. الجبن ، قلت : جبن ثانى ، وارتفعت ضحكاتنا ، وبعد أن أفطرنا ذهبنا والتقينا ببقية مجموعاتنا وتعانقنا فإننا لم نلتق منذ دهر. كانت المجموعة التى يحاضرون فيها أغلبها من الشباب ومن هم دونهم فى السن وكان يترجم لهم أحد الأخوة التتر ، وكان معهم رجل مسن ولكنه مجتهد فى إجاباته وتلمح فيه حرصًا على الاستفادة ، وعلمت من الإخوة أنه يقيم بطريقة غير رسمية فى هذه البلد ؛ بسبب الحرب الدائرة فى بلدهم الأصلية (طاجكستان) ، ومثله فى موسكو كثيرون .

اختتم الإخوة دورتهم بتوزيع شهادات تقدير المشاركة فيها ثم تغدينا فى نفس المكان وأخيرًا طعمنا أرزًا ولحمًا وانصرفنا بعد ذلك .. عندما عدنا لاحظت غياب محمد إبراهيم عنا وسألت عليه (محمود) ، فقال : هو لايعرف المكان جيدًا ولكنه عمومًا مكافح وكثيرًا ما يحب الاكتشاف والمغامرة ولعله يتمشى قليلاً وسيعود .. ولم يحدث وبدأ القلق يراودنى أين ذهب الفتى ؟ إننى وبواقع جيرته لى بالاسكندرية أشعر أننى مسئول عنه ، ذهبت إلى أخ سعودى من مسئولى الهيئة فى حجرته بالفندق وقد قاربت الشمس على المغيب على أنه أحد المسئولين فى الهيئة الإسلامية لذا فقد توجهنا إليه عندما دخلنا وسلمنا عليه.

- وعليكم السلام مرحبًا بالشباب

- قلت : الأخ محمد إبراهيم لم يعد إلى الآن والشمس قاربت الغروب

فمـا راعنى إلا لامبالاته حيث قال : لا فـائدة الآن من البحث عنه فـالليل داخل .. ومستحيل أن نخرج لنبحث عنه لأن ذلك خطر علينا ولكن انتظروا إلى الصباح فإن لم يحضر أبلغنا الشرطة .

ولم أستطع النوم ليلتهـا إلا قليـلاً فقـد كان الأمـر معلقًـا .. أين ذهب وطفقت أتذكـر عذابه وغربته عن هـذه البلاد وعجزى عن الخـروج للبحث عنه .. تراه قد خُطف أم حدث له سوء .. وظللت أدعو الله أن يفرج كربه.. حتى غلبنى النوم ومع إشراق الشمس وجدته يدق بابى : أين كنت (صحتها فى وجهه) .. لقد كنت أخشى عليك الهلاك .. قال : لقد عنّ لى أن أتمشى قليلاً ثم أدرككم فى السكن ولكنى ضللت الطريـق ثم بينما كنت أمشى إذ وجـدت زميـلاً لى كان فى الكليـة ويعـمل هنا وقد أصـر على أن أزوره .. قلت : ولِمَ لم تتصل بنا وتركتنا للقلق قـال : آسف جدًا فالأخ لم يكن لديه تليفونًا فى الشقـة وقد خاف أن يتركنى أمشى وحدى ليلاً فاسـتمهلنى حتى الصـباح .. قلت : أى بلد تلـك التى يخشى فـيها المرء أن يخـرج من منزله مساءً ❑

عماد مرة أخرى

التقيت بالأخ عماد الذى صحبنا فى أول الرحلة فى كييف .. ودعانا إلى تناول الغـداء فى منزل صديق له .. ورحبـنا .. وذهبنا إلى المنزل باستـخدام (الأتوبيس الكهـربائى) الذى يسمونـه (الترليبـوس) .. لاحظت أنه ليس به عامل للتذاكر وإنما توجـد ماكينة معلقة فى أحد الأعمـدة يضع فيها الراكب تذكرة من شـريط تذاكر يكون قد اشتـراه سلفًا من المحطة ليضـغط عليه فى الماكينة اليدوية لتختم بثقب .. وقد يمر أحيانًا أحد المفتشين لينظر إلى التذاكر ويغـرم من لم يختـم تذكـرته لقـد كانت فـكرة حضـارية تنم عن الشـعـور بالمسئولية وبالرغم من ضـيق ذات اليد لدى الكثير من الروس إلا أنى رأيت الكثيـر من الناس يستـخدمون الماكـينة كمـا رأيت غيرهم كـثيـرون أيضًا لا يستخدمونها :

سألنى عـماد : ما تقول فيـما يفعله البـعض إذ يركبون ولا يستـخدمون الماكيـنة ، ويعتمـدون على وجود ثقـب قديم بإحدى الـتذاكر يبـرزونه عند الطلب .

علقت قائـلاً : فكرة شيطانية ، ثم ابـتسمت قـائلاً : وأظنها انبـعثت من عقليات قوم أعرفهم ..

ثم أضفت : وهذا لا يحق .. أو ليسوا قد ركبوا السيارة واستخدموها ؟ فلابد أن يدفـعوا ثمن ذلك ولو كـان إلى الكفار ثم إنهم بذلك قـد يسيـئون إلى الإسلام إذا اكتشف الناس ذلك ، وهى مسئولية أخرى عليهم .

فى الطريق كـان منظرنا ملفتًـا فنحن مجـموعـة من العرب لوننا أسـمر بالنسبـة لغيرنا من الروس ذوى الـشعـور الصفـراء .. وكان مـعنا شـاب

صومالى تعرفنا عليه بلونه المميز وملابسه التى تشبه ملابس الباكستانيين واسمه مهدى . ما إن رآنا أحد الجنود داخل سيارة الشرطة حتى اختفى من مكانه واقفًا وظل يتكلم فى جهاز لاسلكى فى يده وكان عماد يستمع إليه وهو يكلم الطرف الآخر ونقل إلينا ما حدث فإن الشرطى ما إن رآنا حتى شك فى كوننا لا نحمل إقامات ! وربما أننا مطلوبون كذلك !

أما الطرف الآخر فقال له : كم عددهم ؟ فقال خمسة . قال : إذن دعهم فقد يؤذوك !

ضحكنا من فعله ومن الرد الذى تلقاه ثم علقت قائلاً : لقد كان فيما حدث إشارة إلى طريقة تفكيرهم فيما يتعلق بالعرب ..

أما الشقة التى دخلنا إليها فقد كانت صغيرة مثل الشقة التى كنا نسكنها فى الهَرم.. وبرغم الصغر فإنهم يحاولون الاستفادة من كل مساحة بالشقة .

قمنا بإعداد الطعام بأنفسنا .. وكان سمكًا قطعناه وقليناه بالزيت وطهيت لهم أرزًا بالبصل على الطريقة السكندرية التى يسمونها (صيادية) فكان الطعام لذيذًا .

على أحد الحوائط لمحنا صورة كبيرة لشاب فى الحجرة فسأله عماد لم تعلقون الصور بهذا الشكل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعليق الصور .. فقال فى أسى : هنا كان صديقنا من لبنان وعاد إلى هناك والتحق بقوة لمقاومة اليهود ثم استشهد فى إحدى العمليات قلت : رحمه الله تعالى ..قال لقد كان كله أمل وحيوية وقد أحزننا كثيراً نبأ وفاته .. وبالمناسبة فقد كان شيعيًا .. قلت : إذن فقد كان فى حزب الله اللبنانى مثلاً؟ قال : نعم .. فجرنا ذلك إلى الحديث عن الفرق بين السنة والروافض.. فقلت إن مصيبة الروافض فى كونهم ينظرون إلى أهل السنة على كونهم أعداء مع أنهم الذين طرأوا على الأمة بفكرهم .

قال مـهدى : بل إنهم ينظرون إلى الـصحابة نظرة سـوء .. قلت هذا هو الأصل ، وكـما قـال العلماء لو سـألت اليـهود والنصـارى من خيـر ملتكم لقالوا أصحاب مـوسى وعيسى ولو سألتهم من شر ملتـكم لقالوا أصحاب محمد ﷺ .

قال محمود : نعم لقد امتدت إليهم يد السوء مستغلة محبتهم لآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم للدس فى أصحاب النبى وادعاء الفرقة .

قال مـحمـد إبراهيم : كما قـال العلماء لقـد أرادوا إن يطعنوا فى الدين فطعنوا فى حملته وهم الصحابة .

قلت : نعم فلو كـان الصحـابة وهم الذين تربوا على يد رسـول الله هم الذين قـد دار بينهم الخـلاف ومنعوا الحق - المدعـى - لعلى رضى الله عنه فـالطعن فى الدين الذى حـملوه يسيـر ولذا فـمن غيـر المستغـرب سمـاع الدعاوى التى تنتشر فـيهم والعياذ بالله كمثل زعمـهم بأن القرآن محرف أو أمتـدت له يد الحذف والعيـاذ بالله مخالفين بذلك نصًـا قرآنيًا صـريحاً ، إذ يقول الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) سورة الحجر .

قال عماد : إذن فصاحبنا هذا ليس شهيدًا ؟

قلت : ولم لا يكون شهيـداً ؟ إننا نرجو له الشهادة فالأصل فى عـقيدتنا هو العذر بالجهل لاسيما لمن نشأ فى مكان لم يعرف عنه إلا هذا الفكر وكما قال الشافعى لا يكفرون بعمومـهم وإنما يكفر بعضهم ببعض المقالات . هذا بالطبع إذا سلمنا أن صاحـبك لم يكن مطلعًا على شبهات الرافـضة المكتوبة فى كتبـهم الأصلية ومعتقـداً لهما فيكون حكمه كـعوام المسلمين الذين هـم على الإسلام بعمومهم ❑

مترو موسكو

شبكة مترو الأنفاق هنا متقدمة جداً.. فبإمكانك أن تذهب إلى ضواحى موسكو المترامية الأطراف عن طريقها .. المحطات ينزل إليها عن طريق سلم متحرك قد يطول أو يقصر بسبب ارتفاع المنطقة عن مستوى سير القطار ، وقد يستغرق تحرك السلم ثلاث أو أربع دقائق وهى فترة طويلة نوعًا ما للوصول إلى مكان الركوب وهناك (موضة) عند الشباب والفتيات من أدعياء التحاب والصداقة أن يقف أحدهما على درجة قبل الآخر فى السلم ليقف بذلك فى مواجهة الطرف الآخر فيتبادلان الحديث والقبلات والأحضان ! أمام الناس (وإذا لم تستح فافعل ما شئت).

ذهبنا بالمترو إلى منطقة نائية لنأكل هناك حيث بها مطعمًا إسلاميًا يقدم اللحم الحلال والذى لا يتوفر إلا نادرًا .

ولما كان غالب طعامنا الخبز والبيض والجبن فإننا بلا شك اشتقنا إلى أن نأكل شيئًا آخر مع مرور الأيام .

إن المطعم لا يقدم الخمر ولكنهم لا يمنعون من اصطحابها معه .. لذا فقد رأينا بعض الرواد يشربون خمرًا كانوا قد اصطحبوها سلفًا ، لم يعجبنى ما يقدمه المطعم من طعام ..كانت فيه نكهات لم أستعذبها وقد دفعنا مبلغًا كبيرًا يوازى عشرة دولارات لكل شخص .

قال عماد : لقد كان بالمطعم شريكين قتل أحدهما من قريب .

قلنا لماذا ؟ قال لقد رفض إعطاء رجال المافيا الأتاوات التى يطلبونها فقتلوه .

قلت : ما هذا الإجرام ؟ قال : وهذا حالهم دائمًا ، وكما ذكرت لك آنفًا

فهم فئة ورثت خبـرات جهاز المخابرات الـ K G B الكى جى بى ، ولم تجد لنفســها عمـلاً وأرادت الثراء السريع فوجـدت ضالتهـا فى فرض الأتاوات على المستضعفين .

فى طريقنا إلى المترو كـان هناك نصب لحجر أساس قرأ عـماد عليه أنهم بصدد إنشـاء مركز إسلامى وقـال مهدى : إن هناك رجل أعـمال من أصل يهودى هـو الذى تبرع بقطعـة الأرض ولكن الناس ينظرون إليه بريبـة نظراً لأنهم يشكون فـى اعـتناقـه للإسـلام وعـدنا إلى المطعم مـرة أخـرى . فـإذا بالنصب وقد أوسع تكسيراً وهدمًا وألقى عليه القمامة وكتبت عليه عبارات الرفض والشجب لإقامة مركز إسلامى عليه ، ويبدو أن أحد المتعصبين فعل ذلك رفضًا منه للإسلام .

وعند عـودتنا تلقفنى أحـد الأشـخاص وله مـلامح أفريقـية وتفـوح منه رائحـة الخمر ، وظـل يحكى لى أنه بحاجـة إلى مال وأنه قـد طرد من منزله وقد شق علىّ أن لا أعطيه شـيئًا ولكن كان معنا أخ مـغربى ظل يكفكفنى ، وقال له : تعال إلينا فى مقر المركز حـتى نستعرض حالتك ثم نعطيك . على أثرها قـال : لكن صـاحب المنزل يطلب الآن مـالاً وقـد طردنى من منزلى . قـال: تعالى وسنعطيك فى أسـرع فـرصة .. أخـذ العنوان بغيـر اهتمـام ثم انصرف وأردف صـديقنا : لو كانت حـاجته ملحـة فسيـأتى . قلت : ولعله يكون صادقـًا . قال : إنه يأتى إلينا كل يوم عـشرات الناس وبعـضهم يكون صادقـًا والبعض يكـون كاذبًا ، وحتى مـن نعرف صدقـه قد لا نسـتطيع أن نعطيـه شـيئًـا ؛ فليس لدينا القـدرة لإعطاء الجـمـيع .. ولم يأت الرجل إلى المركز ❑

عند أسوار الكرملين

الكرملين ذلك المبنى الأحمر الكبير الشهير بأبراجه الكثيرة والمتميزة كان مقرًا للحكم الشيوعى ورمزًا له بالرغم من أنه بنى قبل دخول الشيوعية .. الآن أصبح مزارًا لكل راغب فى مشاهدته أو التسوق من الأسواق التى أصبحت تحيط به .

منير أخذ يلتقط صورًا للكرملين من بعيد والناس حوله تبيع وتشترى لقد كانت مفارقة مثيرة للرثاء والضحك فالكرملين رمز الشيوعية ورمز التصلب الروسى الأحمر صار مرتعًا للبائعين لكل صنف من الفطائر والبيتزا إلى الأحذية والملابس مرورًا بالساعات ولعب الأطفال .

وبجوار الكرملين يوجد مبنى أشبه بهرم بُترت قمته ، وغطى برخام عنابى اللون يرقد فيه (لينين) مؤسس الدولة .. لقد كان أحقر من أن ندخل لنراه .

هذه البلد خالية الآن من أى أثر بشىء من صناعتها تقريبًا .. ففى كل مكان أحل به كنت أبحث عن راديو يتميز بحساسية عالية قد اشتهرت بصناعته روسيا ولم أجده أبدًا ، وأردت أن أشترى تليفونًا له شاشة تظهر رقم المتصل وتختزن مجموعة من أرقام المتصلين سلفًا فلم أجده أيضًا ، أما اليوم فقد عثرت على شىء أنتج فى البلد .. أخيرًا .. إنها ساعات ذات شكل عريق ولها كفاءة مشهورة تباع فى الأسواق حول الكرملين فسارعت بشراء إحداها تذكارًا لزوجتى ❑

عند محطة القطار

كثير من محطات القطار يكون بها أنفاق صغيرة تحتها لتصل بين طرفى المحطة .. وهذه الأنفاق تكون مرتعًا للحياة من نوع غريب ففيها الشحاذون وجامعو التبرعات بالإضافة لبائعات الورد وبائعو الجرائد وغيرهم .

أما الشحاذون فهم طائفة غريبة من البشر فبإمكانك مثلاً أن ترى رجلاً عسكريًا يرتدى كامل ملابسه ونياشينه والتى علاها الصدأ يقف جانبًا ويضع بجواره - بكل اعتداد - منديلاً أو (كوزًا) يجمع فيه ما ألقى إليه من الروبلات كما يوجد كذلك طائفة (الغجر) المنتشرون فى كثير من البلاد ولهم نفس الصفات تقريبًا تجد أطفالهم يجرون خلفك طلبًا للصدقة وكثيراً ما كنت أعطيهم شفقة منى على طفولتهم وما راعنى إلا أنهم يرسمون الصليب على صدورهم ويتمتمون ببعض الكلمات التى يبدو أنها شكر ودعاء بعد أن يلتقطوا الصدقة ، والعجيب أننا قد وجدنا رهبانًا أيضًا يقفون فى هذه الأماكن لجمع التبرعات للكنائس .

أما المجلات والجرائد فكثيرة ولا يوجد تقريبًا جريدة أو مجلة مما رأيت ناطقة بلغة غير الروسية .. ولكن اللافت للنظر وجود جرائد ومجلات جنسية كثيرة بمثل الانتشار الذى وصفته فى أنفاقها .

أثناء مرورى ذهابًا وإيابًا على محطة المترو فى (بوتنانتشتى ساد) كان يجلس فى الطريق بائع خبز وكان يكتب سعر الخبزالمميز بخط كبير على الصندوق ، وتعجبت أنه قد رفع السعر من ٥٠٠ روبل إلى ٥٥٠ إلى ٦٠٠ فى أسبوع واحد فقط ! بل إن سعر الروبل نفسه تغير من ألفين إلى ألفين ومائتين روبلا لكل دولار فى أثناء فترة إقامتنا القصيرة .

شيء مثير للشفقة أن تجد المجتمع وقد انقسم إلى قسمين : قسم يبدو من مظهره الثراء ، وقسم آخر يعانى الفقر ، والسخيف فى الأمر أن القسم الفقير هو فى الأغلب من العجائز والعجزة . وإن كان العزاء الوحيد في أن هؤلاءحاملو لواء الشيوعية فى شبابهم وعزها ، وهم بالطبع لم يتمكنوا من مسايرة الوضع المتغير السريع التقلب بعد سقوط الشيوعية .. لذا تجد العجزة يبذلون جهوداً ساذجة لتحسين الأوضاع المادية لهم فليس مستغربًا أن تمر فى طريقك إلى المحطات بين صفين طويلين عن اليمين والشمال من البائعين يتكون أغلبه من نسوة وفتيات وبعض الرجال وكلهم وقوف وكل منهم يبيع شيئًا واحدًا .. وواحداً فقط فى الأغلب فهناك من تبيع خمس حبات من الطماطم مثلاً أو علبة سجائر واحدة أو معها قطعة ملابس واحدة فقط فإذا باعتها انصرفت .

وحدث ذات مرة أنى كنت أمر مع الإخوة بين هذا الصف المعتاد وكان الصف طويلاً والجميع يشيرون إليك ببضائعهم .. وفجأة حدث ارتباك وهمس وذهلنا من أن الصفين قد تلاشيا وكأنه لم يكن لهما وجود ، وتحول البائعون جميعًا إلى جمهور يسير فى طريقه والذى حدث أنه قد مر أحد الجنود فى الطرف البعيد من الطريق فلمحه البعض فسرى الخبر بينهم سريعًا فأسرعوا جميعًا بالاختفاء .. وفهمت عندئذ لماذا كانوا يقفون جميعًا مع أن الجلوس أيسر لهم . سبحان الله حتى تحسين الدخل بطريقة مشروعة يعد شيئًا محظوراً فمن أين سيواجه الناس هذا التغير فى حياتهم !

إذا كنت فى طريق واضطررت - أعزك الله - لدخول دورة المياه فإنك ستجد عجبًا .. فلابد من دفع الفلوس أولاً ثم تدخل لتأخذ حاجتك من الورق من إحدى العاملات ثم تدخل إلى مكان الحمامات والذى تفاجأ بأن أبوابه قصيرة كمثل أبواب (اسطبلات الخيل) أو (أبواب البارات) التى كنا

نراها فى الأفـلام الأمريـكية القـديمة قـبل أن يتوب اللـه علينا ... المهم أنك ستصعد درجتين لسلم لتستدير فـتقف فى مواجهة الجمهور الواقفين بانتظار دورهم وبإمكانك من هذا المكان المرتفع أن تلقى عليهم خطبـة إن شئت فإذا حانت منك التفاتة إلى اليمين أو إلى اليســار فستجد زملاءك الذين يمارسون نفس العـمل من خـلال الســور القصـيـر الذى يفـصل بين كل حـمام ومـا يجـاوره، أمــا إذا أردت أن تمارس مـا دخلت من أجـله فـسـتـضـطر لرفع ملابسك أمام الجمهور الواقفين قبل أن تختفى خلف الباب القصير ! ❑

صلاة الجمعة

ذهبنا إلى صلاة الجمعة فى مركز إسلامى قيل أن رجل أعمال سودانى أقامه داخل أحد المبانى فى قلب موسكو وكانت الخطبة باللغة العربية والخطيب سورى ، وكالعادة تنتشر المعلومات التى يكثر مثلها فى هذه البلاد مشككة فى نوايا الناس فمثلاً يقال إن رجل الأعمال الذى أنشأ المركز يقوم بعمليات تجارة فى السلاح والمخدرات وإنه يستخدم مثل هذه الأعمال لغسيل أمواله ، أما الخطيب فيقال عنه أيضًا إنه يتبع المخابرات السورية ، بل إن البعض ممن يجلسون معه قال إنه صرح بذلك ، المهم أن هذا ما ينتشر فهل يا ترى ذاك مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إن الشيطان يأس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه لم ييأس أن يحرش بين المصلين ﴾؟ والذى لاحظته فى الخطبة أن صاحبها يحمل فكرًا مشوشًا وقد حكى فى الخطبة عن قصص عجيبة رجلين أحدهما يهودى والآخر مسلم وكانا شريكيين وكان المسلم يدعو اليهودى للإسلام ثم اتفقا فى النهاية على أن من مات قبل الآخر أن يأتى فى المنام ليخبر صاحبه أيهما على الحق! وظللت أتابع وأنا أتميز غيظًا هذا الكلام الفارغ الذى ليس له سند ولامعنى وفى النهاية مات اليهودى وأخبره فى المنام أنه ليس على الحق ولكن الله رحمه !

وكفانا مؤنة الرد عليه أحد المصلين الذى قام وسلم على الإمام واستأذن فى كلمة وتكلم وأطال حتى استغرق حديثه نحوًا من وقت الخطبة فتكلم عن الالتزام بالإسلام وأهميته وأن الإسلام هو الحق وحده - وكان ذلك إشارة إلى ما أثير فى الخطبة ثم عرج إلى الحديث عن زيادة الإيمان وغير ذلك من النصائح التى خففت بعض ما فى الخطبة من أخطاء ، وهكذا باستطاعة الداعية ودون أن يتعرض للناس أن يصحح أخطاءهم وأن يوصل دعوته ☐

المسجد التاريخى

هكذا يطلقون على المسجد الرسمى الموجود فى أطراف موسكو والذى يصلى فيه المفتى الرسمى ومساعدوه وما يقال فى كل مكان هنا يقال أيضًا على المفتى فقد قيل أنه عميل للمخابرات الروسية - وقد يكون كذلك - أما ما يبدو أنه يحدث فعلاً أنهم يأخذون - أو يفرضون - رسومًا على الأعمال الشرعية التى يؤدونها للناس فى المسجد حتى إنه يقال أنهم يأخذون عشرة آلاف روبل نظير الصلاة على الميت !

ويتقاضون أكثر من ذلك لعقد القرآن .

ذهبنا وصلينا الجمعة التى تليها فى المسجد التاريخى هذا وكانت الخطبة فى بداياتها باللغة العربية ثم تكلم بعد ذلك بالفارسية ، وكان الخطيب هو مساعد المفتى يرتدى عباءة سوداء فوق بدلة كاملة وعلى رأسه عمامة خضراء . أما الخطبة فكانت جيدة ، ترضى فيها عن الصحابة وحث الناس على البر والخير .. بعد انتهاء الخطبة - والتى أطالها الكلام بلغتين - التقينا مع مدير مؤسسة الإبراهيم الخيرية والتى تتخذ من المسجد التاريخى مقراً لعملها وسلمنا عليه ثم استأذن منصرفًا فى سيارة أمريكية فارهة .

❑ ملحق بالمسجد محل يبيع اللحوم الحلال ويشترى منه أكثر المصلين

البحث عن زوجة

عنّ لمحمد إبراهيم أن يبحث عن زوجة في هذه البلاد وعبثًا حاولت إثناءه عن تلك الفكرة فقد تضخمت حتى صارت هاجسًا عنده كلما ذهب إلى مكان يظل يسأل ويبحث ويكلم العرب الموجودين ليرشحوا له زوجة ، وذات مرة رغبت أن أتصل بالأهل وكان الوقت قبل المغرب وبالرغم من تحذير الإخوة لنا من الخروج في المساء إلا أنني قلت لعلنا نذهب فنتصل ثم نعود قبل حلول المساء وبما أننا في هذه البلاد تغرب الشمس قرب العاشرة مساءً ؛ فقد خرجنا نحو الثامنة وأقول خرجنا لأني شجعت محمد إبراهيم على ذلك ليصطحبني ففعل ... وصف لنا الزملاء مكان الاتصال أنه في (فيدان خا) ويبدو أن هذا الاسم معناه الحديقة الكبيرة أو المنتزه لأن في تلك المحطة حديقة كثيفة الزرع وارفة الظلال يؤمها كثير من الناس وتتحلق جماعات من الموسيقيين ، الذين يروجون لبعض الأشرطة التي ينتجونها ليقوموا بعزف ألحانها تشجيعًا للناس على الشراء ، ومشينا إلى مكان به أجهزة للهاتف لكن تبين لنا أنها للاتصالات الداخلية طفنا بالمنطقة فلم نجد من نحدثه إلا بعض عابري سبيل لم يكونوا يعرفون الإنجليزية .. كانت الشمس قد آذنت بالغروب وبدأت أتذكر تحذيرات الشباب ولكن ماذا نفعل فسألنا في كشك لبيع الخردوات عن مكان للاتصال فظلت فتاة بداخله تستجمع ما عندها من الكلمات الإنجليزية لتصف لنا مركز الاتصالات الذي يقع في آخر الشارع على اليمين من عمارة مرتفعة ، ومشينا لفترة طويلة كانت كافية ليحل الظلام التام بنا إنها موسكو في الليل .. ترى ماذا سيحدث لنا .. أخذنا نسير .. ثم قلت لمحمد : لقد طالت المسافة ما رأيك

فى أن نعود ؟.. قال : لقد حل بنا الليل وقضى الأمر ؛ فلننجز ما خرجنا من أجله ولنعود بعد ذلك مسرعين ، كـان علينا أن نعبرالشارع لنصل إلى مبنى الاتصالات وكان عريضًا جدًا لذا فـقد قطعناه وكادت السيارات أن تصدمنا فالـسيارات كـانت خلف إشارة المـرور سرعان مـا فتـحت فى أثناء عبـورنا للشـارع ولما نبلغ منتصـفـه ، وإذا بسيل من السـيارات تعـبر الشـارع الذى نقطعـه وإذا بهم يفـاجأون بنا وحـدث ارتباك كـاد مـعه أن تصطدم إحـدى السيارات بنا ، ولكن الله سلم وجرينا مسرعين إلى الطرف الآخر .. وما إن وصلناه حتى تنفسنا الصعداء على بداية الشارع كان هناك ملهى ليلى تقف أمامه سيارات وتتسكع حوله فتيات ..

أجرينا الاتـصال وقررنا أن نعـود عبـر أنفاق خـصصت للسيـر فى أثناء البـرد وبالفعل نزلنا إلـيهـا ومشـينا فيـهـا .. وكانت خـاوية هادئة .. ولكنه الهدوء الذى يخيف الغرباء من أمثالنا .

وظل محمـد إبراهيم بمرحه المعهود يـداعبنى قائلاً : من غيـر المعقول أن تتعرض لك إحدى عصابات المافيا وأنا سأدعوك إلى حفل زواجى المأمول. بادلته بـقولى : إننا لا نأمن على نفـسينا من المرور فى مـثل هذا النفق وأنت تكلمنا عن الزواج من أهل تلك البلدة .. وضحك ومشى وهو يردد جملتين يعجبه جـرسهمـا على أذنه وهما (يانيـزنايو) ومعناها أنا لا أفـهم وكذلك (يانيبـانيـمـايو) ومعـناها لا أدرى ... وهكذا ظل يكررها بصـوت عـال . ابتسمت وقلت له : لو تخيلت من يمشى فى بلاد العرب ويردد بصوت عالٍ أنا لا أعرف فماذا كنت ستقول عنه ؟

فى أثناء ذلك لفت نظرنا صـوت خطوات من خلفنا والتـفت فوجـدت مجـموعـة من الشبـاب يسيـرون فى نفس اتجاهنـا .. وبالطبع يلفت نظرهـم وجـودنا ترى فيم يـفكرون وأى نوع من الناس هم ؟ تجـاوزونا ونظروا إلينا

باستغراب كانوا خمسة ولكنهم لم يبدر منهم ما يزعجنا ووصلنا إلى المترو إنه أكثر أمانًا من ذلك النفق واستقللناه إلى (بوتاتشيشى ساد) ، أخيرًا قاربت الرحلة المزعجة على الانتهاء النورمقطوع فى الشارع ، ونحن فى طرف الحديقة القريبة من الفندق ،كان هناك أحد الثمالى يترنح ويسقط على الأرض إعياءً .. رباه كم هم مغيبون ، يهربون من واقعهم إلى (الفودكا) .

لامنا (دارا) على الخروج مساءً وقال : لقد كنتم فى خطر حقيقى وسأقص لكم ما حدث لبعض معارفى كانوا يقطنون شقة ، وذات مساء إحدى الفتيات طرقت عليهم الباب فقد رأوا ذلك من عين الباب وفتحوه دون أن يتحققوا فإذا بجماعة من الشباب تقتحم المنزل ويوسعونهم ضربًا ثم أخذوا كل ما يمكنهم حمله ورحلوا بعد أن تركوهم مقيدين فى الحمام .. قلت : ولم تركوهم هكذا .. قد يموتون قال : إنهم أناس لا قلب لهم ، ومع ذلك فقد سلم الله بأن أنقذهم قريب لهم كان يمر ليزورهم بين حين وآخر ، ودخل عليهم فوجدهم فى حالة يرثى لها .. ودخل علينا عماد وشاركنا بقوله : لقد كان أحد الزملاء فى المؤسسة يمشى مع زوجته فى محطة المترو ؛ فتعرض له بعض الشباب من الروس ، وقالوا له : أعطنا سجائر . قال : ليس معى . فقالوا : إذن أعطنا نقوداً نشترى بها . فقال : لا . فما كان إلا أن اعتدوا عليه هو وزوجته وكانت حاملاً فسقط حملها .. تبادلنا النظرات أنا ومحمد كطفلين يؤنبهما والدهما ❑

في الفندق

كان المفترض أننا نستعد للذهاب إلى دورة أخرى في مدينة اسمها (نالشك) ولكن لم يحدث توفيق في ذلك فقد عمد مسئولو الهيئة إلى البحث عن مكان آخر لعقد دورة نشارك فيها وبعد إجراء الاتصالات تقرر أن تذهب مجموعة الشباب إلى (سان بطرس بورج) وأن أذهب أنا و(محمود) إلى (قيرغيزيا) على حدود الصين ، لذا فقد كان علينا أن نستعد للسفر بعد يومين حسب مواعيد الطائرة .

في المساء التقينا بعبد الحميد داغستاني وهو شاب سعودي نذر نفسه للدعوة في تلك البلاد وكتب كتيبًا ضمنه شيئًا من تاريخ تلك البلاد ، ومعلومات عنها وقد ذكر فيه طرفًا من تراجم بعض العلماء والمجاهدين في تلك البلاد الذين عاصروا بدايات الشيوعية وقاوموها ومنهم الشيخ شاميل أشهر علماء المنطقة ومجاهديهم في العصرالحديث . التقينا بعبد الحميد على العشاء وكان معه بعض ضيوف من السعودية .. إننا لانذوق طعامًا في هذا الفندق إلا إذا كان عبد الحميد موجوداً ، أما إن كان غائبًا فإن الخدم لا يمدونا بأي طعام ، ونكتفي بالطبع بأن نأكل الجبن والخبز والبيض المسلوق، وتحدثنا في تلك الليلة عن هذه البلاد وما يراد بها وقال عبدالحميد: إننا نجد بعض الأعمال التي يمكن استغلالها في الدعوة مثل إعداد البرامج لمحطات الإذاعة والتلفزيون أوحتى استئجار وقت فيها بمبالغ ليست كبيرة إلا أننا لانجد كفاءات يمكنها أن تعمل في تلك المجالات .

قلت : كيف .

قال : لا يوجد من نعتمد عليه من أهل البلاد الذين يتقنون اللغة أو

يتقنون العمل على الأجهزة .. وليس معى فيها أحد .

قلت : أليس من سبيل آخر .

قال : دبرنى .

قلت : تدريب مجموعة فى إحدى البلاد ..

تحاورنا ثم انصرفت إلى حجرتى وكان فى الممر امرأة تتسكع وهى تنظر إلىَّ . ودخلتُ إلى حجرتى.. إن لغة العيون لغة يفهمها البشر لاسيما الرجال والنساء .

***

الناموس .. ذلك الضيف الثقيل ..كم أوسعنا ترحيبًا فى (موسكو) وقدحاولنا أن نكافحه دون فائدة فإذا أغلقت النافذة أتعبنى الحر وإن فتحتها امتص الناموس دمى .. فماذا أفعل ؟ أخيراً وجدت أقراصًا تباع ذات رائحة تطرد الناموس .. وتقلب بطنى أيضًا..!

فى ذات ليلة كنت قد صليت العشاء مع الإخوة نزلت إلى حجرتى .. فإذا بطرقات هادئة على الحجرة وصوت امرأة هامس ينادى من خلفها .. هممت أن أرد ؛ ولكنى قلت لنفسى وماذا يفيد ردى فلربما كان الأفضل ألا أرد ؛ فأنا ابتداءً لا أعرف إلاقليلاً من مفردات اللغة ، وأنا لا يعرفنى أحد فلن يضيرنى عدم الرد ، وتذكرت ما روى عن العصابات التى تقتحم على الناس غرفهم أو بيوتهم بمثل تلك الحيل .. وقررت ألا أفتح .. وازدادت الطرقات حدة .. وأنا بالداخل أشغل نفسى بقراءة كتاب والطرقات تنقطع تارة ثم تعود أخرى وهكذا نمت وأنا تفزعنى الطرقات ثم استيقظت فى النهاية على صوت رجال وامرأة يجلسون أمام الغرفة يتكلمون ويصيحون.. يبدو أنهم سكارى .

وفى الصباح كنت متجهًا إلى المصعد فإذا بالمرأة التى كانت تنظر إلى

تسرع لتركبه معى فخدعتها فى آخر لحظة تاركًا إياها تركب وحدها

ضيق ذات اليد مع غلو المعيشة من أكبر أسباب البخل هكذا كنت أقول لنفسى كلما تعاملت مع أحد الناس هنا فلا أحد هنا يعطيك شيئًا أو يدعوك إلى طعام أو يساعدك بدون مقابل تقريبًا.. إنها الحياة المادية التى خلفتها الشيوعية ..

اتصلت بأحد الإخوة هنا .. أعطانى رقم تليفونه أحد الأصدقاء بالدوحة.. لأنقل له تحيات هذا الصديق .. وكان قد خطر ببالى أن أسأله أن يساعدنى فى الحصول على جهاز التليفون الذى أريد .. وكنت كالعادة قد بحثت عنه فى كل مكان هنا فلم أجد منه حتى جهازًا واحدًا فى أى سوق مررنا به.. فلما اتصلت به وسألته عن هذا الجهاز أرشدنى إلى شخص اسمه (جام شيث) وهو أخ طاجيكى اتصلت به عدة مرات وواعدنى أنه سيبحث لى وفى النهاية قال : هناك جهاز واحد ولكنه بيع قبل يوم واحد من طلبى له. وجاء هذا الصديق ليزورنا فكلمه محمد إبراهيم فى قضيته .. يريد أن يبحث له عن زوجة !

ويحك يا محمد .. ! ◻

حشود عسكرية

جاءت الأخبار باستعدادات عسكرية وحشود على الحدود مع الشيشان وتحدثت تلك الأخبارعن انقلاب وشيك على حكومة الشيشان التابعة لموسكو* كما جاءت أخبار أخرى عن إغلاق حدود داغستان بسبب انتشار وباء الكوليرا .. وفى أثناء ذلك حدث تقليص لعدد العمالة داخل الهيئة خرج على أثره كل من (عماد ودارا) من الهيئة .. أحزننى ذلك ورغبت فى أن أكلم عبدالحميد داغستانى ولكنى لم أجده ، وهنالك كان موعد سفرنا إلى (قرغيزيا) (أو قرغيزستان) على الحدود الصينية قد حان ، وكان المرشح للذهاب معى هناك أخى (محمود) فقد كانت تلك رغبتنا سويًا أن نذهب إلى هذا المكان لأن فيه مخيمًا دعويًا وكنا نعرف أهمية ذلك فى حين فضل الآخرون الذهاب إلى دورة فى (سان بطرس برج) ، وقد أغراهم ماسمعوه عن جمال الحدائق والمبانى هناك ، وحان وقت خروجنا من موسكو وتجهزنا للسفر وذهبنا إلى المطار سويًا ووحدنا .. هذه المرة هى أول مرة أسافر منفردًا فى هذه البلاد التى لا نتقن لغة أهلها ولا هم كذلك يعرفون لغتنا أو أى لغة أخرى للخطاب .

وآخر ما مر بنا فى موسكو مما آثار عجبى هو أننا خرجنا أيضًا منها دون ختم للخروج فقط ذهبنا إلى المطار ودخلنا إلى صالة الانتظار وفحصوا التذاكر ثم سمحوا لنا بركوب الطائرة إذن فقد دخلت إلى موسكو وخرجت منها دون أختام (!!)

حانت منى إطلالة عند باب الطائرة وكأنى ألقى نظرة وداع على تلك المدينة الصاخبة ، أغالب فيها مشاعر متضاربة راودتنى فيها .. ما بين خوف وألفه ودهشة لكم تتغير نظرتنا للمكان إن أقمنا فيه ... ❑

---

* كان ذلك بداية الحرب بين الشيشان والروس والتى أدت إلى الانفصال .

إلى كازخستان

ركبنا الطائرة إلى كازخستان وهى أكبر الدول الإسلامية من حيث المساحة تبلغ مساحتها حوالى ٤ ,٢ مليون كيلو متر مربع فى حين أن عدد سكانها لا يتجاوز الـ ١١ مليون شخص

وعلى عكس الطائرة التى أقلتنا إلى (أوكرانيا) من (الشارقة) كانت تلك الطائرة فهى أكثر اتساعًا وحديثة وبها مضيفات شابات يتكلمن بعض مترادفات الانجليزية فهى بذلك على العكس فى كل شىء !

بالرغم من أنها طائرة داخلية إلا أننا أعطينا وجبة عشاء أكلنا منها الخضروات والسلطة فقط إذ إن اللحم غالبًا غير مذبوح على الشريعة الإسلامية .

إننا نسير عكس الزمن فقد كان الوقت الذى خرجنا فيه من موسكو يقارب منتصف الليل فى حين أن فرق التوقيت بين البلدين أربع ساعات تقريبًا .

الليل يحيط بنا ونحن فى الطائرة بين السماء والأرض .. مشهد مهيب يا رب رحمتك .. إن الكرسى الذى أمامنا يجلس فيه رجلان وامرأة ، المرأة بجوار الشباك وبجوارها أحد الرجلين ، والذى افترضت جدلاً أنها زوجته، والآخر صديق .. وطيلة الساعات الخمس التى قطعناها فى الطيران والمرأة تهدهد هذا الرجل فتأخذه فى أحضانها وتقبله وتداعب شعره وخده ونحن جالسان لا نستطيع حراكًا ولا إنكارًا فى هذا المكان البعيد وغربة اللسان والمكان .

وبعد فترة جاءت المضيفة بزجاجات خمر صغيرة لمن شاء ، قلت ليل

وخمر بين السماء والأرض فكيف إذا نزل بنا عقاب الله تعالى ؟ وتعجبت من تقديم الخمر على طيران يفترض أنه متجه إلى دولة مسلمة ! وجاءت تباشير الصباح بعد أن غلبنا النوم وكنا نستيقظ بين حين وآخر ولا ندرى هل أذن الفجر أم لا حتى لاح لنا الصباح فقمنا لنتوضأ . المرأة التى أمامنا لاتزال تمارس هوايتها!..أتراها تحبه لهذه الدرجة أم أنه الحرمان فما إن وجدت أحدهم حتى تعلقت به ؟ كل ذلك جائز هنا ؛ فالنساء همهن الرجال ، والرجال همهم الخمر ، وابتسمت وأنا أتخيل أن بعد هذا الحب غالبًا يأتى من الشقاق ما تشهده ساحات المحاكم وأروقة مخافر الشرطة فى الغرب.. وتوضأنا وصلينا فى مكان فسيح من الطائرة .. وتحرينا القبلة والناس ينظرون إلينا .. ماذا يفعلون ..وأنا أسأل نفسى أليس منكم رجل رشيد يصلى معنا !

وصلنا إلى المطار مطار ألما آتا عاصمة كازخستان ونزلنا على أقدامنا إلى صالة الاستقبال.. ليست بعيدة ولا قريبة وعلى باب الصالة لم نخطئ مستقبلنا ولم يخطئنا : شاب فلسطينى ، يدرس هنا ووقفنا بانتظار الحقائب وكان هناك يهودى ينتظر حقائبه وينظر إلينا إنه له شكل اليهود المميز والذى لم نكن نعرفه إلا بعد أن لفت مضيفنا نظرنا إليه فقد كان يلبس بدلة سوداء كاملة وطاقية سوداء مستديرة وكبيرة - ليست كالصغيرة التى يستخدمونها فى الصلاة ولكنها شبيهة بملابس رعاة البقر الأمريكان ، وكان يجدل شعره كهيئة النساء لينسدل شعره من الطاقية على كتفيه ، كان ينظر إلينا ويتأمل فينا ونحن أيضًا ننظر إليه ونتعجب من اهتمامه بنا ، وأخيرًا وبعد طول انتظار وجدنا الشنط فأخذناها وانصرفنا ما هذا .. ألا توجد جوازات هنا أيضًا ؟ إن صالة الاستقبال مفتوحة على الشارع فما أن تأخذ نأخذ شنطك إلا وتنصرف راشدًا لا يعرف أحد من أنت ولا لماذا دخلت إلى هنا ؟.. شىء غريب ! ❑

على الأرض مرة أخرى

أكثر ما يلفت النظر فى كازاخستان هو الأشكال الصينية لكثير من السكان هنا بالإضافة للأشكال الروسية التى اعتدنا عليها فى موسكو وأوكرانيا فكانا كطرفى نقيض ، فالروس بأشكالهم الأوروبية قد رحلوا إلى هذه البلاد ليحتلوا فيها مواقع القيادة فى حين رُحِّل كذلك الصينيون وغيرهم من تركستان الشرقية إلى هذه البلاد بأشكالهم المعروفة وعيونهم الضيقة وشعورهم السوداء ليعيشوا فى هذه البلد مع غيرهم من الجنسيات التى منها الأكراد المحليين والأتراك والأوزبك بأشكالهم الشرقية المتقاربة .

خليط هو إذن من البشر ومع ذلك يعيشون فى هذا المكان وقد ألفوه فلم يعد الروس إلى بلادهم .. أو لعلهم لا يملكون القدرة المالية على العودة أو لعلهم قد وازنوا بين الأمان الذى يميز تلك البلاد عن غيرها لاسيما وهم مازلوا يحتلون مواقع القيادة كحالهم السابق . ولك أن تتخيل أى نفوذ لروسيا الحالية فى تلك البلاد المستقلة .

دخلنا إلى حيث يقيم الدعاة أنهم يمرون بنفس ظروف العمل الدعوى فى هذه البلاد وهم طلبة يمارسون العمل الدعوى من خلال الهيئات الخيرية، وبالطبع فهم يتكتمون الإعلان عن الأنشطة التى يقومون بها خشية ملاحقة المافيا ورجال المخابرات والمتطفلين من الناس ، إن الشباب فى هذه الشقة يبدون أكثر عملاً وتنظيمًا للدعوة ؛ فهم لديهم ماكينة لنسخ الأشرطة السمعية (الكاسيت) وكميات من النشرات بلغة أهل البلد .

عرض علينا الإخوة أن نستكمل نومنا فنمنا مرحبين .. إن السفر يُعلم من اعتاد عليه أن ينام فى أى مكان ، أن يتصرف بأى إمكانيات ، وبعد أن استيقظنا جلسنا نتكلم معهم عن خطوتنا المقبلة ❑

فرص ضائعة

لم تكن كازخستان بالنسبة لنا إلا محطة انتقال إلى قرغيزيا التى بها المعسكر الدعوى ، وكان علينا أن نتجه إليها عن طريق البر فكان لزامًا أن نستقل سيارة إلى هناك وقد ذهب أحدهم لإنجاز المهمة ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث مع الباقين ، وقلت :سمعت أن كزاخستان بها خيرات على مد البصر ، قال أحدهم : وفيها ما هو أكثر من هذا فهنا مثلاً يتوفر اليورانيوم الذى يستخدم فى صناعة القنابل النووية وطبعًا يتبع ذلك وجود خبرات تقنية عالية فى هذا المجال .

قلت : ويا ترى بعد تفكك الاتحاد السوفيتى هل هناك محاولات للاستفادة من تلك الخبرات فى البلاد ؟

قال : هناك من الأجانب من سارع بالاستفادة من هذه الإمكانيات سواء بافتتاح مصانع التعليب ، أو بتهريب اليورانيوم ، وغيره من الإمكانات ، أو سرقة التكنولوجيا والخبرات لنقلها إلى البلاد الغربية . أما موقع المسلمين من كل ذلك فهو الفتات مع الأسف الشديد فمبادرات الدول الإسلامية للاستفادة من تلك الفرص كانت قليلة للغاية . كما أنه يوجد خلاف مع روسيا على الحدود ، وقد يكون هناك نزاع مرتقب بين البلدين ولذلك انعكاسات سلبية على العملية الاقتصادية برمتها .

سألت : وبالمناسبة ما اسم العملة التى تتعاملون بها هنا وكم تساوى ؟

قال : العملة هنا فى كزاخستان اسمها (التنجة) والدولار الواحد يساوى ٤٥ تنجة ، وعلى كل فئة من التنجة توجد صورة مرسومة لشخص مختلف وأرانى بعض العملات وكان شيئًا مسليًا : فمثلاً يوجد على الأوراق فئة

التنجـة صورة الفارابى الـفيلسوف المـعروف ، فى حين يوجد رســم لصورة أحد أبطالهم هنا واسمه سيويناى على فـئة (٣) تنجة ، بينما فئة (١٠) تنجة توجد عليها صورة شخص اسمه شوكان من مواليد ١٩٣٥ !

بعد ذلك سأل محـمود : وما أخبار الدعوة الإسـلامية فى أوساط الناس هنا ؟

نظر الشبـاب إلى أحدهم وكان أكبـرهم فانبرى قـائلاً : الدعوة فى هذه البلاد الإســلامية أفـضل من غيرها من بلاد الاتحـاد السوفيـتى السابق ، وإن كـانت بالطبع لا تضاهى بـأى بلد من البلدان الإسلامـيـة الغيـر تابعة لهـذا النظام الشـيوعى ويكفينا دلـيل على ذلك عدم وجود مـساجـد إلا ما ندر ، والجهر بالخمر فى الشــوارع ، وندرة أو انعدام الحجاب بل وندرة من يصلى عمومًا مع الأسف الشديد .

فمـا زال القوم فى مـرحلة الانتقال ودورالمسلمين فـى ذلك هام جداً فى إعادتهم □

السفر براً

اتفق الشباب مع سيارة (ميكروباس) قديمة لنقلنا وما نحمل من شنط إلى قيرغزيا وودعناهم شاكرين .

استغرق سفرنا بالبر حوالى ٥ ساعات وكنا برفقة أحد الشباب من الهيئة فى (ألما آتا) وهى بالمناسبة تنطق (ألماطا) عند أهل البلاد هنا .

طال علينا السفر وفكرنا أن نتناول شيئًا من الطعام ولم نتمكن من ذلك لأن مرافقنا حذرنا من أنهم يزعمون أن اللحوم المستخدمة مذبوحة على الشريعة الإسلامية وهى ليست كذلك ، قلت : حتى فى تلك البلاد الإسلامية لا يتم الذبح على الشريعة ! نظرت لمحمود وقلت بحسرة : واأسفاه ضاعت وجبة اللحم المشوى ولم يكن هناك شىء آخر يمكننا أكله إلا اللحوم ، فعلى طول الطريق تنتشر شوايات قريبة من استراحات كانت تغرينا برائحتها مع الجو الجميل : المائل إلى الدفء .. لاسيما وقد أتعبنا السفر ❑

قيرغزيا

قبل الحدود سألنا مرافقنا إن كان لدينا تأشيرات دخول لقيرغزيا فأجبنا بالنفى : فقال أخشى أن يستوقفنا موظفو الحدود وكأنه كان يتنبأ بما سيحدث.. فقد أوقفنا على الحدود ولكن السائق كلمهم دون أن يشعرهم بأن معه غرباء.. لذا فقد سمحوا لنا بالدخول. إن هذه البلاد كانت جزءاً واحداً أيام الشيوعية ثم سقطت وتحولت إلى دويلات وحدود .. وكان الأولى بها أن تتحد الدول المسلمة منها فى قوة واحدة ؛ لتكون أكثر قدرة على تحمل متغيرات ذلك الانقلاب، ودخلنا إلى قيرغزيا وبهذا نكون قد اجتزنا حدود أربع دول دون أختام دخول وخروج! إذ دخلنا إلى موسكو بعد خروجنا من أوكرانيا وخرجنا منها بدون أختام وعبرنا كازخستان وخرجنا منها كذلك بدونها الآن إلى (قيرغزيا) دون أختام أيضًا فيا للعجب!

بعد أن توجهنا إلى محل إقامتنا تعرفنا على ساكنيها الجدد : شابان لطيفان أحدهما فلسطينى اسمه نضال والآخر مغربى واسمه أبو مصعب ، وهما يعملان فى الهيئة أيضًا ، ودعنا مرافقينا قبل أن نستقل بسيارة خاصة نقلونا إلى المعسكر .

الطريق رائع الجمال ..جبال محيطة بنا تتسلقها أحيانًا زراعات لفتها باللون الأخضر كما أننا مررنا على نهر صغير قيل لنا أنه ينبع من جبل قريب من المعسكر والطريق يرتفع أحيانًا فتبدو السهول تحت الجبال وقد تناثرت حولها البيوت التقليدية المبنية بالخشب والمتشابهة فى أشكالها واللطيفة فى بساطتها فتبدو كبيوت الأساطير التى يحكون عنها فى تلك البلاد. بدا المكان وكأنه صورة متميزة لفنان مبدع، وأى إبداع أعظم من إبداع الله سبحانه وتعالى، وصلنا إلى المعسكر قرب حلول الليل.. والشمس تؤذن بالغروب فيزداد المنظر روعة بذلك الشفق الأصفر الذى يسبق الغروب.. وبعد أن حل الظلام بدأنا نشعر ببرد لم نعهده من قبل .. ❑

إسيكاتا

إن مكان المخيم جبلى مرتفع .. وقد حل علينا المساء فما وصلنا إلا ونحن نرتجف من البرد .. قلت لمحمود : فكيف ببرد الشتاء ! إنه منتجع جبلى يسمى (إسيكاتا) بمعنى العين الدافئة ، والمكان فعلاً عين دافئة تنبع من الجبل ، ولأن بها أملاحًا مفيدة فقد كان الناس يأتون إليها للاستشفاء ويشبه اسم ذلك المنتجع اسم منتجع آخرشهير فى هذه البلاد يأتيه سواح من البلاد المحيطة اسمه (ايسيكول) وفيه كما يبدو من المقارنة عين باردة .

أول ما لاحظناه هنا أن بالمكان عدة أعرق : فالمسلمون هنا أعراق وأشهر القوميات المسلمة هنا هم (الدومغان) وأشكالهم صينية و(الايوغور) وهم من الأحناف ولهم أصول تركية بالإضافة إلى وجود مجموعة من الشباب من قرية أصلها من داغستان (على حدود روسيا) وقد نقلوا أثناء الحكم الشيوعى إلى ذلك المكان البعيد وتعدادهم فى القرية حوالى ألفى نسمة وقريتهم اسمها (واستشنى) أخبرنى بذلك الأخ نضال ونحن نتوجه إليهم واستقبلنا جماعة من الشباب الداغستانيين لفتوا أنظارنا بأجسامهم الطويلة وأشكالهم الجميلة ولونهم الأبيض المشبوب بالحمرة .

وهم الذين استقبلونا ، وبكل احترام حملوا أمتعتنا فى خفة لفتت نظرى.. ما شاء الله لقد كان يعيينى أن أحمل حقيبتى الثقيلة فما هو إلا أن تلقفها أحدهم من يدى ووضعها على كتفه حتى انطلق بها كأنه يحمل طفلاً صغيراً .

ثم سارعوا إلى تجهيز وجبة الطعام المنتشرة هنا ؛ أرز مبشور عليه جزر وبه لحم ، وبالرغم من أن الأرز المستخدم فى هذه البلاد من نوعية رديئة لا

تنضج كليًا إلا أننا استمتعنا بهذه الوجبة وشعرت بالدفء يدب فىّ بعد أن كنا نرتعد بردًا .

بدأنا نتعرف على الشباب . إن المسئول عنهم هنا يحسن الكلام بالعربية إلى حد كبير واسمه (عبد المطلب) وبالرغم من أن سنه يقترب كثيرًا من سنونهم إلا أنهم كانوا يجلونه ويحترمونه بشكل كبير ، وكان بالنسبة لهم كالقائد فى كل شىء ؛ فهو الذى يصدر الأمر للذهاب أو للانصراف مثلاً ، وأدركنا من اللحظة الأولى أنه مركز قوى لا يستهان به فى المكان .

الفارق الكبير بين الدول ذات الأصول المسلمة هنا وبين الدول الأخرى ذات الأغلبية من الكفار (كأوكرانيا وروسيا مثلاً) هو أن الأمة المسلمة حرصت على هويتها وعلى عدم الانخراط فى المجتمع الكافر فى التعليم بالذات ، ثم فى غيره من أسباب الاختلاط فكان من نتيجة ذلك أن حمت تلك الأقليات نفسها أمام محاولات طمس الهوية ، أما الأقليات المسلمة التى لم تفعل ذلك كمثل من رأيناهم فى (القرم) فإنهم إلى حد كبير خسروا كثيرًا .

صحيح أن فى الانغلاق خسارات من جهات أخرى كعدم الاستفادة من الدعم الحكومى لبعض الأنشطة أو عدم وجود تكامل فى البلاد الإسلامية فى بعض النواحى كالتعليم الجامعى مثلاً . إلا أن المكسب النهائى يكون عظيمًا من الناحية الإسلامية وهذا مثال حى أمامنا إذا قارنا بينه وبين من رأيناه من إخواننا فى غير هذه البلد .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول (أنا برئ من كل مسلم يقيم بين ظهرانى المشركين..)

فالإقامة مع المشركين تؤثر بلا شك فى التعود على حياتهم ، بل واستحسانها ، وسقوط قضية إنكار المنكر مع استشرائه ؛ وفى ذلك خطر

عظيم بالإضافة لضياع مفهوم الولاء والبراء - الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين - ولعل أم جريج العابد كانت محقة إذ رأت أن مجرد رؤية وجوه المومسات عقوبة (كما فى الحديث المشهور) ، ويا ليت العرب يقتدون بهم فى ذلك فيجعلون لأبنائهم من يربونهم من العلماء ويتعاملون معهم تعاملاً لائقًا بمكانتهم .

سألت (عبدالمطلب) عن الراتب الذى يتقاضاه كيف يوفرونه له فقال : هذا شىء متعارف عليه من بعيد فكل أسرة تلزم بدفع مبلغًا من المال شهريًا كوقف منها على هذا العمل ، وبذلك يصبح هذا المبلغ حق وقفى يجب عليهم دفعه وهم يجمعونه بطريقتهم ليصل بعد ذلك مرة واحدة إلى المدرسين بشكل لائق وكريم .. فيا له من تكافل ❑

زهور وسط الصحراء

تعرفنا بعد ذلك على الأخ (سليمان) وهو من (الدومغان) وهذا الأخ شعلة نشاط ماشاء الله ؛ فهو يتكلم بخمس لغات من بينها العربية والتركية والصينية بالإضافة للروسية ولغة أخرى محلية ، وهو كذلك يقوم على مدرسة هو مديرها ومؤسسها تخدم الجهة التى يسكنها ويدرس فيها طلاب كثيرون .

كما أن له اهتمامًا خاصًا بتربية الأخوات المسلمات ، وقد رأينا عجبًا منهن ومن أخلاقهن فى أثناء إقامتنا بهذا المكان .

ذات مرة كنت أسير فى طريقى متوجهًا لمكان المحاضرة وكانت بعض الأخوات يسرن بالاتجاه المقابل فما أن رأيننى حتى سارعن بالاختفاء ، وكيف ذلك والطريق كان أرضًا مزروعة بنبات الحشيش وليس هناك مكان يتدارين فيه ، ولم أعر الأمر اهتمامًا إلا أننى عندما اقتربت من مكان سيرهن السابق لاحظت أنهن يتوارين خلف أعواد من الحشيش طويلة .. لذا فقد آليت على نفسى كلما رأيتهن يمشين ذهابًا وإيابًا فى طريقى أن أسارع أنا بتغيير مسارى حتى لا أوقعهن فى حرج مماثل .

وظللنا أنا ومحمود نضرب كفًا بكفٍ أن يوجد فى هذا المكان وفى تلك البلاد نساء بهذا الحياء .

فالمقارنة بين أحوال النساء فى تلك البلاد وبين حال أخواتنا كالمقارنة بين السماء والأرض ؛ إذ تمشى الروسيات فى هذا الصيف وقد تخففن من ملابسهن إلا قليلاً .. فالحمد الله الذى هدانا للإسلام فرفعنا من ذلك الحضيض إلى هذا الطهر والعفاف وإلا فما الذى يمنع هؤلاء

الأخـوات مـن أن ينخرطن فـى تلك الإباحية التى تجـر على النساء نكدًا أو حزنًا ، ويا حسرتهن بعد فوات الجمال وانصراف الرجال عنهن . إن أخواتنا بحق كزهور جميلة نبتت فى صحراء جرداء .

تعرفنا كذلك على مـجموعة من الطائفة الثالثة (الأبـوغور) فأغلبهم من كبـار السن وتلمح بركة أولئك الذين التـزموا بإسلامـهم فى تلك الظروف التى مروا بها أمـا كبيرهم فـاسمه الشيخ (عبـد المجيد) وهو شيخ للمـسجد العام بالبلد وخطيـبه وهو رجل طيب لا يحسن العربية ولـكنه مؤثر جدًا فى أتباعه الذين يتبعون المذهب الحنفى .

من هذا الخليط المختلف اللغـات المتباين السن يتـآلف ذلك المخيم الذى حللنا به ، ومنذ اللحظـة الأولى التى وصلنا فيـها شـعرنا أن هناك اختـلافًـا واضحًا بين الواقع السابق الذى عشناه وبين واقع تلك البلاد .

لفت نظـرى أن الأحناف يصلون فى الـصـالة الســفليـة للـمكان الذى يقيـمون فيه فى حين أن الشـباب الذين مع (عبـد المطلب) يصلون دائمًا فى صالة للـرياضة عند مكان مـرتفع إذ يتكون ذلك المخيم من عـدة مرتفـعات وخشـيت عندئذ أن يكون التـفرق فى أداء الصـلاة بين الفريقين هو بسـبب الخلاف المذهبى وعزمت أن أسأل عن ذلك ❑

أنشطة دعوية

اتفقنا على أن تكون المحاضرات صباحية محاضرة لى وأخرى لمحمود فكانت محاضراتى عن السيرة النبوية الشريفة فى استعراض سريع لأهم جوانبها ، ثم كانت ندوة عامة للإجابة عن الأسئلة ، ومحاضرة عن القرآن الكريم وإعجازه ، ومحاضرة عن أهمية النية وأهمية اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان نظام المحاضرة غريبًا أن ألقى جملة أو فكرة ثم أنتظر وكان الأخ (سليمان) بعد ذلك يترجم إلى التركية ثم بالروسية ثم الصينية وهى اللغات التى يتكلم بها الحضور ، ولنا أن نتخيل كم هو شاق على الأخ سليمان أن يقوم بتلك المهمة فيتلقى الجملة من المحاضر ثم يعيد شرحها بتلك اللغات الثلاث ، لذا فقد كان الإرهاق يبدو واضحًا على أخى سليمان - بشكله الصينى - وينصبب عرقًا بشكل يثير الشفقة بعد انتهاء المحاضرات .

أما بالنسبة لنا فى الإلقاء فقد كانت العقبة الوحيدة التى نواجهها هى أن الأفكار قد تتوه أو يضطرب نسقها مع الانتظار حتى الانتهاء من تلك التراجم الثلاثة .. وبالرغم من تلك المشقة فقد كنا نشعر بسعادة غامرة إذ وصلنا إلى تلك البلاد وأتيحت لنا فرصة الالتقاء بأولئك الإخوة قد لا نكون أضفنا الكثير من العلم إليهم - فالجهل هنا منتشر - ولكن حسبنا من ذلك أن نشعر ويشعرون بتلك الأخوة الإيمانية التى تجمع بيننا : من عرب جاءوا من أواسط الشرق إلى أتراك وصينيين من أقاصيه .

لم يجمع بيننا لسان وإنما جمعت بيننا قلوب ألف الله بينها .

فى إحدى المحاضرات الأولى عن السيرة تكلمت عن ذلك المعنى فى

معرض حديث عن الحالة قبل بعثة الرسول ﷺ وماكانت عليه الجاهلية من قطع للأرحام وإساءة للجوار وشرك بالله تعالى ، وكانت تلك المقارنة بحال الأمة ولاسيما فى تلك البلاد مثمرة فهى تبين الحاجة إلى ماكان عليه النبى صلى الله عليه وسلم من علم وعمل وطاعة لله تعالى للخروج من ظلمات الجاهلية سواء كانت بائدة أم معاصرة . ولم تفتنى الإشارة إلى أهمية التخلص من تلك الجاهلية العالقة بنفوس البعض .

من الأخطاء الطريفة التى تقع أحيانًا فى الترجمة أن المترجم لقلة علمه أو لسهوه قد يوصل مفهومًا خاطئًا دون قصد منه ، وقد حدث فى محاضرات السيرة خطأ بسيط فى ترجمة الأخ سليمان إذ كنا نتكلم عن نزول الوحى على رسول الله ﷺ ومجىء جبريل عليه السلام إليه فى الغار على صورة رجل فكانت الترجمة أن رجلاً جاء إلى رسول الله فى الغار وقال له اقرأ ونسى أن يذكر أنه جبريل وأنه ملك فكان الأمر موهمًا وقد انتبه الإخوة إلى ذلك فنبه الشيخ عبد المجيد وعبد المطلب وأخ فلسطينى اسمه أشرف وهو أيضًا من الهيئة جاء ذلك اليوم مع صديق له اسمه معن وبعد ذلك الخطأ انضم عبد المطلب إلى عملية الترجمة ليخفف من عبئها عن سليمان .

فى بداية المحاضرات لاحظنا أن النساء لا يحضرنها وتعجبت أليس المراد من الحضور هنا الاستفادة الشرعية لذا فقد توجهت إلى سليمان وهو الذى يقوم على المدرسة التى تنتمى إليها أغلب المحاضرات كما أسلفت فقال : إنهن يستحين من الحضور . قلت له : فلم أتين إذن إلى المخيم إذا لم يحضرن تلك المحاضرات .. وتذكرت قول عائشة رضى الله عنها رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه فى الدين .

وبالفعل استطاع سليمان أن يقنعهن بالحضور ، وبالمناسبة فالمحاضرات

تقام فى قـاعة مسـرح ، وعندما استـجابت الأخوات كـن يجلسن فى الجزء الأخير منه ومـع استمرار المحاضـرات كنا نلاحظ تفاعلهن معـها ، وقد كن يرسلن أحيـانًا ورقات أسـئلة أو إجابة على بعض أسئـلة يطرحها المحـاضر وكـان من بين الحاضـرين غيـر المسلمين أتوا للتـعرف على الإسـلام ومنهم روسيـات يجلسـن فى المقدمة أحـيانًا أو بجوار الرجـال ولـم نكن نمنعهن من ذلك طمعًا فى أن يتعرفن على الإسلام ❑

المخيم

المكان رائع الجمال حقًا .جبل قد بُنى عنده المخيم .. فكان المخيم يقع عند أسفله ويأخذ جزءًا منه ، وكانت هناك مسارات يجرى فيها الماء الذى ينحدر من الجبل لتكون مسارًا يزيد من روعة المكان فتلاحظ الماء وهو يسرى إلى جوارك أينما توجهت . صحيح أن المكان قديم كحال أغلب المبانى التى رأيناها فى تلك البلاد كما أشرت إلى ذلك آنفاً إلا أن ذلك لم يؤثر فى جمال المكان .

كما أن المبانى تقع خلف مسار الماء لذا فهم يضعون معبرًا يربط الطريق بالمبنى ، والبنايات تقع متفرقة فى المكان يحيط بها حدائق وأماكن للجلوس دائرية بالإضافة للمسرح وصالة الألعاب الرياضية .

أما الجبل الذى ينبع منه الماء فهو على يمين الداخل إلى المخيم ويخرج منه الماء مندفعًا من فتحة قرب قمته لترسم شكلاً بديعًا عند سقوطها قبل أن تستقر فى المسار السفلى للنهر الصغير الذى يمتد إلى عدة كيلو مترات وهناك أيضًا جبل صغير على اليسار ، تتناثر عليه زراعات تنبت ربانيًا دون تدخل البشر لتضفى عليه جمالاً من نوع آخر .

أما من داخل المخيم فتنتشر أصنام للرجل الصنم (لينين) الذى أنشأ تلك الدولة مترامية الأطراف .. مثل أغلب الأماكن العامة هنا .. لقد تخلص الشيوعيون من الأديان بزعمهم ليستبدلوها بعبادة الأشخاص والأهواء والأصنام !

خطر لى ذات مرة أن أضع يدى فى الماء الذى يسرى على يمين الطريق ويساره فلما فعلت وجدته ماءً حارًا وتذكرت اسم المكان (اسيكاتا) العين

الدافئة ، وتكلمت مع عبد المطلب عن الاستشفاء بهذا الماء فقال : إنه توجد حمامات هنا يتردد عليها المقيمون بالمكان ، وإذا شئت ذهبنا عصرًا إليها لتأخذ حمامًا داخل المكان المخصص . قلت لنفسى لم لا أجرب .. ولم يكن بى ولله الحمد شيئًا يحتاج إلى الاستشفاء وإنما قيل لى إن ذلك يفيد الجلد عمومًا ويطرد آثار البرد من العظام وذهبنا بالفعل ..

وكانت هناك قائمة شروط أو قل ملاحظات هامة ينبغى أن تراعى فمنها عدم التأخر عن وقت معين فى الاستحمام بمعنى أنه لا يتجاوز المستخدم مدة ١٥دقيقة داخل الماء وينبغى أن لا يكرر الاستحمام قبل مضى يوم كامل.. وقاست إحدى المشرفات ضغط دمى ثم سُمح لى بالدخول ، كان عبد المطلب ينتظرنى بالخارج .. باب زجاجى يفضى إلى (بانيو) به (دش) له مسار للماء الساخن - من العين - وأخرى من خارجها للتبريد بها ومن ثم تخفيف أثر الأخرى من الأملاح حتى يحسن استخدامها ، ويحاول المستخدم الصمود لأطول فترة فى الماء الحار .. بعدما دخلت وهممت أن أخلع ملابسى فوجئت بأنه وإن كان الحمام مغلقًا علىّ (بترباس) من الداخل عبر الباب الزجاجى إلا أنه فى الحقيقة مفتوح من الناحية الثانية على زملائك من المرتادين بمعنى أنه يوجد ممر داخلى يربط بين الحمامات من الداخل وبعضها ، وانزعجت إذ تصورت أنه بسهولة يمكن لأى مستخدم للحمامات المجاورة أن يتمشى بينها أو أن يطل علىّ ليسألنى كم الساعة معك الآن !

وخرجت إلى (عبد المطلب) الذى بادرنى بقوله أمعقول أنك انتهيت بهذه السرعة فشرحت له الوضع فدخل معى وأطل على من هم عن يمينى ويسارى محذرًا من دخول أحد علىّ ثم طمأننى قائلاً : إنهم من المسلمين فلا تخف لن يطل عليك أحد .

وترددت ثم أغلقت الباب ، وخلعت ملابسى إلا من سروالى الداخلى (احتياطيًا) هكذا قلت لنفسى .

إن الماء شديد الحرارة لاسيما إذا لامس شيئًا من الجلد من غير كف اليد التى اعتادت على ملامسة الأشياء ، ولما كان الأمر بالنسبة لى مجرد تجربة فقد فتحت الماء البارد حتى أستطيع أن أستخدم الحار . استطعت فى النهاية وبصعوبة أن أغمس جسدى فى الماء ، وما هى إلا لحظة بعدها حتى فوجئت بالمشرفة التى قاست لى الضغط وهى تمر بهدوء داخل الحمام ما الذى أدخلها (يا عبد المطلب) وأتانى صياحه من الخارج وقد فهم مجاورى ماحدث وأخذ يبدى التأسف .. ثم سألنى بعد أن خرجت بفضول عما حدث فقلت له : الحمد الله لقد كنت أرتدى سروالى فضحك وأسررت فى نفسى أنه خيل إلىّ أن تلك المرأة كانت تنظر إلى مكان موضع معين من جسدى ❑

صديقى معن!

(هاجيت) ..كلمة سمعتها كثيراً من الأخ (معن) ولم أفهم معناها وكان كثير الترديد لها سنذهب (هاجيت) المحاضرة (هاجيت) .. وحدث أن سألته ذات مرة عن الأخ أشرف فقال ذهب هاجيت .. ابتسمت وقلت له : معن هل لك أن تفسر لى معنى (هاجيت) .. فنظر إلى كمن ينظر إلى شخص هبط من القمر .. معناها (الآن) .. وأخذت أرتب فى ذهنى كافة المعلومات التى كانت تصلنى عن طريق هذه الكلمة على ضوء المعنى الجديد الذى اكتسبته .

***

حدث فى مساء أحد الأيام أن كنا نصلى مع عبد المطلب وإخوانه صلاة العشاء ، وكنا قد لاحظنا قبل ذلك أنهم عندما ينتهى الإمام من قراءة الفاتحة فإنهم يقولون (آمين رب العالمين) بدلاً من الاكتفاء بقول (آمين) فقط كما هو معروف ، ونظراً لما نعلمه من حساسيات القوم فى التعرض المباشر لما اعتادوا عليه فقد رأيت أنا ومحمود أن نؤجل كلامنا معهم حول تلك المسألة إلى وقت مناسب نجتمع فيه مع (عبد المطلب) لأننا سألناه أول مرة سمعناهم يقولونها فقال : إنها فى مذهب الشافعية .

وقبل أن نتحدث معه راجع الأخ (محمود) المسألة فوجد بالفعل قولاً فى الشافعية يقول ولا مانع أن يقول آمين رب العالمين .

أما (هاجيت) فحدث أن صلى معنا الأخ أشرف ومعن . وهى أول مرة يصليان معنا صلاة جهورية وبمجرد انتهاء الصلاة قام أشرف بكل حماس وتكلم عن البدع وأن كل بدعة ضلالة وبدا وكأنه سيتكلم فى هذا الموضوع

وفهم عبد المطلب كلامه فقام آمراً من معه بالانصراف وعدم الإصغاء له وبالفعل قام الجميع وتركوا المكان .. وهمست لأشرف : لقد كنا ننتظر الفرصة المناسبة لمناظرة عبدالمطلب فى هذا الأمر وياليتك انتظرت قليلاً فهم نشأوا على ذلك وقد يصعب عليهم أن يتلقوه منا مباشرة وفى مرة واحدة.

وكأن أشرف قد فوجئ برد فعلهم فسكت ، ثم تحدث محمود مع عبد المطلب داعيًا إياه أن يأتينا إلى غرفتنا قليلاً .

وجاء عبد المطلب بالفعل وتكلمنا طويلاً.. كيف أن الأولى بنا أن نجتمع ولا نفترق ، وأن نجتمع على ما أجمعت عليه الأمة أولى من أن نأخذ بشىء من المذاهب ولاسيما فى الصلاة - يكون مختلفًا عما تناقلته الأمة وتلقته بالقبول .

ولو صلينا جميعًا فقال بعضنا آمين فقط والبعض الآخر مثل ما تقولون لحدث شىء من الالتباس والارتباك ، وعمومًا فالمذهب لم يلزمكم بتلك الصيغة وكلمته عن أهمية الالتزام بالسنة عمومًا إذا استبانت .

وبعد أخذ ورد اقتنع عبد المطلب بأن الأولى أن يترك هذا القول وأخذ على عاتقه أن يبلغ من معه بذلك ، وحدث بالفعل بعد هذا اللقاء وفى بعض المرات أن نسى بعضهم فقال آمين رب العالمين ولكنهم اعتادوا بعد ذلك على الاكتفاء بآمين ❑

شاى خفيف

محمود له جذور من الصعيد .. وهو يحب أن يشرب الشاى ثقيلاً كعادة أهل الصعيد ، والجماعة هنا أعتادوا أن يقدموا لنا شايًا خفيفًا للغاية بل إن شئت فقل كأنه ماء مغلى كادوا أن يضعوا فيه شايًا لكنهم نسوا ذلك .. وكل مرة بعد المحاضرات نجلس للإفطار فيمدوننا بهذا الشاى المذكور وكل مرة أيضًا يعلق محمود لو بس يزودوا الشاى ، قلت له ذات مرة مبتسمًا : ألم تتعود بعد على هذا الشاى ؟ قال : لا أبدًا .. فقلت له إذن كف عن الشكوى ، لقد حفظت شكواك التلقائية كلما وضعوا لك شايًا . فضحك وقال : ماذا أفعل ؟ لم أعتد فى حياتى على مثل ذلك وأنا أدمن شرب الشاى . قلت : أما أنا فلا أشربه إلا هنا ؛ لأنه لايوجد غيره ، والحقيقة أننى لا أشربه إلا مضطرًا لأننى لا أحب أن أتناول شيئًا أحس معه بالحاجة إليه بعد ذلك كحالة مدمنى الشاى من أمثالك .

طعامنا هو ذلك الجزر المبشور على الأرز واللحم وهذا ما اعتدنا عليه طيلة فترة مكوثنا هنا ، وأحيانًا كثيرة لم يكن للحم نصيب معنا فيكتفون بالأرز فقط .. ومع مرور الأيام لا نأكل إلا أرزًا فى الغداء وشايًا على الإفطار وبيضًا مسلوقًا على العشاء ، سئمنا تلك الوجبات فالخضروات قليلة وأورثنا ذلك عسرًا فى الهضم .

وذات مرة جاء طبيب تركى يتكلم العربية بدرجة معقولة ليزور أحد أقربائه فى المخيم وأحضر خروفًا وقاموا بإعداد وجبة مكرونة مسلوقة باللحم المفروم وشوربة فكان تغيرًا جيدًا لا بأس به ❑

جلسة مع الأصدقاء

جلسنا نتحدث هنا وسألت (سليمان) : عن عدد القوميات فى البلد قال من الراديو قالوا إنها ثمانين قومية .. قلت : سبحان الله عدد كبير جدًا فكم يبلغ إذن تعداد السكان قال : أربعة ملايين وأغلبهم من المسلمين ، قلت : وهل هم ملتزمون بالإسلام مثلكم ؟ قال : إننا فيهم قلة ولكننا موجودون على العموم ، وبعض الناس قد بدأ يشعر بفقدان الهوية والرغبة فى العودة إلى الجذور ، قلت : كحال من قابلناهم فى البلاد الأخرى ؟ قال أشرف : إن هنا مقالاً رأيناه فى إحدى الجرائد لكاتب مشهور يعقد فيه مقارنة طريفة بين الشيوعية والإسلام فقال لقد كان الشباب فى منطقتنا لا هم لهم إلا شرب الخمر والفودكا والدخان ومراقبة الفتيات وإذا أردت أن تراهم سكارى فى أى وقت رأيتهم لاسيما ليلاً ، أردفت : وأظن أن بعض الناس يتجمعون حتى الموت بسبب السكر فى تلك البلاد قال فعلاً المهم أن الكاتب قال ولقد حل بالمنطقة داعية إسلامى كريم واجتهد فى دعوة هؤلاء الشباب إلى الصلاة والتّلم والخير ، ولم يمض على ذلك شهور حتى اختفى الوضع السابق وأصبح هؤلاء الشباب طيبون جادين والتحق كل منهم بعمل أو دراسة .

ثم أردف الكاتب يقول : لقد كان ماركس ولينين يقولان : الدين أفيون الشعوب وكذبا ؛ فما نراه الآن هو أن الشيوعية هى أفيون يخدر جسد الأمة ويلهى شبابها فى الخمر والنساء دون أن يعملوا على النهوض بأمتهم . قلت: وما نراه من فشل لتلك الدولة المنصرمة - الاتحاد السوفيتى - هذا هو أيضًا دليل على ذلك فما كانت فى عمر الأمم إلا لحظات سكر انتشى بها

قائلوها ثم فوجئوا بانهيارها .

قال محمود : عمومًا الحمد لله أن شهد شاهد من أهلها ، أضاف عبد المطلب : رئيس الجمهورية الآن عسكرأكايو سئل عن الشيوعية ولماذا لا تتبع أفكار ماركس ولينين ؟ فأجاب إن عقلى أكبر من عقليهما .

قال سليمان : هل علمتم بأن الحكومة الفرنسية قد طلبت من موسكو أن يبيعوا لهم جثمان لينين لوضعه فى متحف اللوفر هناك !

قلت : لقد رأيناه فى مبنى أمام الكرملين ولم نذهب لنبصق عليه فهو أحقرَ من ذلك ، ولم يبق لمثل هذا الفكر إلا أن يوضع فى المتاحف .

***

كنا نسكن فى أحد المبانى الخشبية التى يعج بها المخيم وكانت غرفتنا فى نهاية الطرقة ، وكان لهذا المبنى مشرفة صينية وكثيراً ما كنا نسمع فى أثناء مرورنا أصوات ترتفع بأغنيات صاخبة من غرفتها ، وقد لمحتها ذات مرة وقد فتحت الباب على مصراعيه ووقفت هى وأخرى على الباب يرقصان على تلك النغمات .. ولما كان الأمر فى هذه البلاد أننا نهتم فقط بما جئنا من أجله ومع ضعف أو انعدام حصيلتنا اللغوية ؛ فإننا بالطبع لم نتمكن من الكلام أو ممارسة الدعوة مع الآخرين .

***

ذات مرة جاءنى (عبد المطلب) وكان يبدو عليه الضيق ثم قال : لقد وجدت هذا الخطاب مع أحد طلابى .. قلت : وماذا فيه ؟ قال إنه خطاب من مشرفة الدورعندكم إلى أحد الطلاب وتعتب عليه فيه أنها جاءت حسب الموعد وانتظرته ولم يأت ، قلت : وهل سألته عن ذلك ؟ قال : فى البداية تهرب منى وعندما أصررت عليه أن يخبرنى تكلم وقال إنها هى التى تشاغله وهو لا يهتم بها ولكن كانا قد تمشيا سويًا بناءً على رغبتها وقد

واعدته فى وقت لاحق ولكنه لم يأتها ، قلت : وكيف ستتصرف فى هذا الأمر؟ قال : عاقبته وشددت عليه ، ولكن ماذا أفعل فشبابنا كما ترى فى عنفوانهم ، وهم بذلك يغرون الفتيات . قلت مؤمنًا : إنهم ما شاء الله ذوى أشكال وسيمة حقًا .

ضحك قائلاً : وهذا ما يوقعنا أحيانًا ضحية تلك الأشكال الجميلة ؛ إذ تحاول الفتيات أن يتعرضن لنا لاسيما وأن رجالنا فى الحقيقة أجمل من تلك النساء .

قلت مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبيه عليه فى أثناء المحاضرات والتذكير بقصة ذلك الشاب الذى أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الزنا فقال له أترضاه لأمك أترضاه لأختك وهو يقول : لا يا رسول الله فيقول له : ولا الناس كذلك يرضونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ثم دعا له الرسول بأن يحصن الله فرجه فعلينا أن نفعل ذلك ❑

مغامرة فوق الجبل

أغرانى الجبل بشكله الجميل على صعوده ؛ فلم يكن جبلاً كبيرًا بحيث يسمى الصعود إليه تسلقًا ، كما أنه كما ذكرت تجمله الخضرة النابتة عليه وتضفى عليه بهاءً لطيفًا .. لذا فقد عرضت الأمر على (معن) وهو يسير معى عصرًا أحد الأيام فوافقنى على الفور وصعدنا متأملين ذلك الجمال . وكنت بين حين وآخر ألتفت إلى المخيم وأنظر إليه من فوق وقد تكشف أمامنا فرأينا طرقة أمامنا والناس يمشون فيها .. إن المنظر السفلى جميل إذا صعدت كما إن المنظر العلوى جميل إن كنت فى أسفل.. وتأملت وقلت لنفسى هكذا الدنيا .. يتبدى لك الجمال فى غير ما فى يدك فإذا تحولت إليه بدا لك ما كنت فيه أجمل مما ذهبت إليه .

على الجبل كنا نسير سويًا - أنا ومعن - وأنا أنطلق فى مرح فهذه أعشاش طيور على أشجار صغيرة وتلك الغربان التى تعودنا عليها فى تلك البلاد .. وهنا حمام يطير شكله ضخم قليلاً .. أما (معن) فكان يسير ناظرًا إلى الأرض فالتفت إليه وسألته عن تواجده وإقامته ، وكان كعادة الشباب هنا يدرس .. ماذا فى الأرض حتى يركز فيه هكذا .. سألت نفسى وظللت أنظر إلى الأرض معه.. أعشاب بها بعض الحشرات التى تفزع أحيانًا لحركتنا فتفر من أمامنا .. وصلنا أخيرًا إلى القمة وكان بها بيتًا مهجورًا أظن أنه كان منتجعًا لطيفًا فى شبابه .

جلسنا نستريح قليلاً .. وجدت على الأرض جلدًا مزركشًا والتفت إلى معن .. يا معن ما هذا الجلد .. نظر إلىَّ : ألا تعرفه ..؟ قلت : أشك أهو جلد ثعبان .. قال : نعم .. سألته فى حرج : وهل بالجبل هنا ثعابين ؟ قال

مبتسمًا : يبدو .. وعرفت سر أنه لا يصعد إلى المكان إلا القليل من الناس.. وسر تأمل (معن) كذلك فى الأرض حال صعودنا.

وتذكرت كل الطرق التى يتمكن بها الإنسان من الهبوط من على جبل دون المرور على أرضه .. التلفزيك والأجنحة الطائرة ولم يكن هناك بد من النزول على أقدامنا حيث لم تتوفر تلك الأسباب فى هذا المكان بعد.. وكانت رحلة النزول السريعة .. بل السريعة جدًا ❑

مشكلة الكتب

لو نعلم قيمة ما فى أيدينا من المصاحف وما لدينا من الكتب لعاملناها معاملة لائقة عن ذلك ولشغلنا أوقاتنا بها قراءة وتعلمًا وتدبرًا .. هكذا قلت لنفسى لما جلسنا أنا ومحمود وعبد المطلب نتحدث فشكا لنا الأخير من نقصان الكتب لديهم ، وحجم المشكلة يبدو ضخمًا أمامنا إن علمنا أنه لا توجد مطابع بها استعدادت لطباعة الكتب بحروف اللغة العربية لمن يقرأها أو لطباعة الكتب الدينية عمومًا باللغات الأخرى التى يعرفها من لا يعرف العربية فلا سبيل إذن أمام إخواننا هناك إلا أن نمدهم بما لدينا فى بلادنا من مصاحف أو كتب ، وكنت قد سمعت أن إحدى دورالنشر بالسعودية قامت بطباعة بعض الكتب المترجمة أما ما رأيناه هنا فى تلك البلاد فقليل جدًا ولك أن تتخيل مثلاً أنه لا يوجد كتب فى السيرة إلا ترجمة يسيرة كتبها الروائى عبد الحميد جودة السحار ! وأنا أتعجب فى أمر من أسند إليه الترجمة لِمَ لم يهتم بترجمة كتاب آخر لبعض كتاب السيرة المعروفين وليكن الترشيح لأحد المعاصرين ، مثلاً وهكذا قس على ذلك التراجم الأخرى فالقوم يحتاجون إلى كتب عن الفقه والتوحيد وتزكية النفوس والتحذير من البدع وموقف أهل السنة من الفرق التى قد تجد مرتعًا أمامها تلك النفوس المتعطشة للخير والمفتقدة للتوجيه ، بالإضافة للمصاحف التى بها نقص شديد لذات الأسباب المذكورة ، وياليت بعض المحسنين يهتم بإنشاء مطبعة فى تلك البلاد لتخدم تلك الأمة بأسرها ولعل ذلك يكون ذا ربح أيضًا فى الدنيا ..واضطررنا بسبب ذلك أن نجمع ما كان معنا من كتب وكتيبات وأعطيناها لعبد المطلب كنوع من الحل السريع والواقعى للمشكلة ❑

مناظرة

أقمنا إحدى المحاضرات فى المسرح كالمعتاد خصصناها لمناقشة عامة . الحضور كان قويًا فقد سبقت تلك المحاضرة دعاية داخل المخيم فجاءت مجموعة من الساكنين ليحضروا لأول مرة ، ووجهت الأسئلة إلىّ وكان أحدها عن طبيعة المسيح عليه السلام وقد وجهته امرأة - يبدو أنها صحفية أو شىء من هذا لأنها كانت تكتب ما أقول وتسأل أحيانًا - وقد بدأتُ الكلام فى تلك القضية بالحديث عن إرسال الله تعالى الرسل وإنزاله للكتب لصلاح الدنيا وليقود الرسل أممهم إلى ما يحبه الله ويرضاه ، ثم عددت بعضًا من الأنبياء ممن يعرفهم الجميع كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام ، وقلت إن طبيعة البشر أن تذعن للبشر لذا لم يرسل الله الرسل من الملائكة حتى لايدعى أحد صعوبة الاقتداء بهم .

إذا فهمنا ذلك واستقر فى أذهاننا قسنا عليه المسيح عليه السلام فقامت المرأة وسألت ولكن لم لا يكون إلهاً قلت إن العقيدة التى تبنى عليها المسيحية المعاصرة أمر نزول الإله - بزعمهم - هى عقيدة الفداء فقد نزل الإله حتى يكفر خطيئة آدم عليه السلام ، ثم أتبعت ذلك بعدة أسئلة ماذا عن الأمم السابقة مثل تكفير الخطيئة ؟ هل سيعذبون بها أم لا ؟ لم تأخر نزول المسيح على آدم كل تلك القرون ! ألم يكن الأولى أن ينزل بعد الخطيئة ، وهل غفر الله لآدم قبل ذلك أم لا ؟ إذا كان قد غفر له فلم يكون الفداء ؟ وإن لم يغفر له فلم ندعوه نحن إذن وقد نحتاج إلى فدو آخر على كل ذنب نقترفه ؟ لم نزل المسيح طفلاً ثم كبر ثم الفداء ؟ لم لم ينزل كبيراً مرة واحدة ليتم الفداء والخلاص.. ما الفرق بين المسيح وغيره ولم لا نقيسه على

غيره من الرسل بمعنى ما المانع أن يكون رسولاً كغيره ؟ ألكونه أحيا الموتى .. فقد أحياها موسى فى حادثة البقرة وأحياها إبراهيم فى أربعة من الطير .

وأخيراً هل خلا الكون من إله - وحاشا له - عندما صلب المسيح ؟ وأشرت إلى اختلاف النصارى حول الابن هل هو الإله نفسه أم بعضه ؟ وقارنت بين ذلك وبين عقيدة المسلم فى الله وفى رسله .. أحسست أن المحاضرة كانت موفقة وأن الحضور قد اقتنعوا جداً حتى تلك المرأة سكتت ثم سألت عن كتب الإسلام فوعدها الحضور بإعطائها وهم يحسون بالفخر والثقة .

وجاء سؤال آخر من أحد الحضور - إنه رجل كبير يمسك عصاً - كنت ألاحظ وجوده فى كثير من محاضراتنا .. إنه يسأل عن أدلة وجود الله تعالى لقد سأل السؤال بشىء من التحدى المستفز .. فتعجبت لظنى أنه من المسلمين وبدأت أتكلم عن أن لكل موجود موجد وأن كل شىء فى الدنيا نلمسه لابد أن يوجد له صانع وذلك مصداق قول الله تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) .. انظر إلى هذا التوازن الرائع والتقرير المحكم لخلق الله لو اقتربت الشمس لاحترقنا ، ولو بعدت لتجمدنا ، ولو زادت نسبة الأكسجين لسهلت الحرائق ، ولو قلت لاختنق الناس وهذه التسوية لخلق الإنسان : عين لا يمكن تعويضها إن فقدت ، يد تتحرك بيسر وسهولة ، قلب ينبض دون توقف ألا يدل ذلك على وجود الله ؟

فرد بنفس لهجة التحدى : لكننا لا نراه أمامنا وما أظن الأمر إلا محض أساطير انفعلت لجرأته ولكنى رددت ببرود وقلت له وأنا أحس أنه يتهاوى وهل ترى تلك الكهرباء التى تنير تلك الغرفة هل تشاهد الالكترونات التى تمر بتلك الأسلاك .. أم أنك تكتفى بوجود الإضاءة للاستدلال على مرور

الالكترونات هـل ترى روحك التى لو خرجت من جسـدك لما نقص من الجسد شىء .. إنه لا فرق بين الإنسـان الحى والميت إلا الروح غير المرئية رأيته يفكر ويتأمل.. وانتهت بعد ذلك المحاضرة ببضع أسئلة خفيفة

قـال لى سليمـان : هل تعـرف الرجل المجادل الذى كـان فى المحاضـرة السابقة ؟ قلت : لا . قـال إنه مفكر مشهور اسمه عـزيز نارينای وكان قبل ذلك فى الحزب الشـيوعى ولكنه الآن بعـد انهيار الاتحـاد السوفـيتى يكتب تاريخ (الأيوغـور) ، رددت : لقد اسـتنبطت من أسلوب كـلامه أنه يجـادل بشكل غيـر طبيـعى ، ولما فكرت فى أمره أحـسست بالشفـقة عليـه فإن من تربى فى الشـيوعـيـة ورأى بعد ذلك انـهيـارها وسقـوط فكرها يحـاول أن يتشبث بشىء يثبت لنفسه به أنه لـم يضيع عمره هدراً .

قال : لعله الآن يراجع نفسه فى آخر حياته .. فقد أسر إلى بعض معارفه هنا بأنه تأثر كثيراً بالمحاضرات ولاسيما المحاضرة الأخيرة التى ناظرته فيها .

قلت عسى أن يراجع نفسـه فيختم له بخاتمة الخيـر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يـقول : إن العبد لـيعمل بعـمل أهل النار فيمـا يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ❑

مع عبد المطلب

جاء عبد المطلب إلى حجرتنا - أنا ومحمود - وجلس إلينا وكان يحمل بعض الكتيبات التى أعطيناها له ، وما إن جلس إلينا حتى مد يده بها قائلاً : لا أريد تلك الرسائل .. وتعجبنا : لمَ ..؟ قال : تلك المطبوعات الملونة الصغيرة .. إننا نعرفها جيدًا ، كثيراً ما يمدوننا بها ؛ إنها تدعو إلى الوهابية . ولم تكن تلك الرسائل إلا مجموعة كتيبات عن التوحيد وبعضها عن الأخلاق وكظمت غيظى : ألم تشكو لنا يا عبد المطلب من قلة الكتيبات ورجوتنا أن نمدك بشىء منها ؟ قال : نعم ولكن الفكر الوهابى هذا شىء نرفضه . قلت له : وما هو الفكر الوهابى ذلك الذى ترفضه ؟ قال : الوهابية أولئك الخوارج عن الخلافة الذين يكفرون الناس . قال محمود مهدئًا إياه : صبراً يا عبد المطلب ولا تلق التهم جزافًا هناك بلا شك نوع من التجنى قد حصل لتشويه الدعوة الوهابية : فالشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن يكفر الناس بمعاصيهم وذلك ثابت فى كتبه ؛ وكل ما فى الأمر أنه عمل على محاربة عباده القبور والشرك بها من دون الله ، أضفت : وهل تقر مثلاً أن يتخذ القبر صنمًا يعبده الناس ويقربون له القرابين ويطوفون به ويخدعهم الشيطان بأن ذلك يقربهم إلى الله ؟ قال : لا . فقلت : وهذا ما دعى إليه الشيخ وعمومًا كل الناس يؤخذ من قولهم ويترك إلا النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلو فرضنا أن الشيخ أو غيره قد قام بأعمال طيبة وأخرى أخطأ فيها فلنقبل منه الطيب وأنت فى فقه الشافعية تعمل بحديث إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث .

قال : وما وجه الربط فى ذلك ؟ قلت : لو أحسن المسلم - لاسيما إن كان من أهل العلم والفضل - إحسانًا كبيرًا ثم أساء مثلاً فإن حسناته تغطى على تلك السيئة . قال فى تحفز : وهل أنتم وهابية ؟ قلت : نحن إخوانك مسلمين مثلك وهل رأيت منا انحرافًا أو ضلالاً قال : لا .. قال محمود : فلا تجعل الشيطان يوسوس لك بما يباعد بيننا وبينك ❑

دورة المياه

أريد أن أصف الحياة التى عشناها فى تلك البلاد وصفًا دقيقًا نستنبط منه التربية التى تبنتها تلك الفكرة - فكرة الشيـوعية - لتعرف عظمة هذا الدين الذى ننتمى إليه .

أقـول هذا توطئـة لما سـأذكره الآن مـن وصف لدورة الميـاه التى تقع فى الدور الذى نسكنه من المبنى القديم . إن الدور كله الذى يسكن فيه أكثر من عشـرين شخـصًا تخـدمه دورة مـياه واحـدة ، ولا تتعـجب إن قلت لك أن لدورة الميـاه الواحدة تلك باب واحـد يفتح على عـدد (٢) كرسى حـمام ! كيف ذلك؟ أبدًا إذا أردت أن تدخل دورة المياه مـا عليك إلا أن تفتح الباب الذى يحوى هذه التـحفة الفنية ثم تلقى تحـية الصباح أو المسـاء على زميلك الجالس على الكرسى الأول لتتجه بعد ذلك إلى الكرسى الثانى الذى يفصل بينه وبين الكرسى الأول سـاتر زجاجى ولك أن تتخـيل ذلك أن يطل عليك من هو بجوارك ليسألك هل أعجبك الغداء اليوم مثلاً ؟ بل إننا كثيرًا ما كان يصل إلى مسامعنا خارج دورة المياه أصوات من هم بداخلها وهم يتحدثون.

(مش ممكن) قلناها سويًا - أنا ومـحمود - عندما اكتـشفنا هذا الكشف الجغرافى العبقرى .. لقد تحملنا قبل ذلك فى دورات مياه أخرى عدم وجود المياه وكنا نحملها معنا ، وتحملنا كـذلك قذارة بعضها التى لا تطاق وتحملنا وجود ستائر متهتكة تستر الحمام عن الناظرين بالكاد أما هذا فلا يطاق وكنا نتناوب - أنا ومحمود - الحراسـة إذا دخل أحدنا إلى دورة المياه يظل الآخر على البـاب واقفًا لئـلا يدخل عليه أحـد إذ لم يكن للباب كـذلك (ترباس) يغلقه من الداخل .

وفى إحدى المرات التي دخلت فيها إلى تلك الدورة وكان محمود واقفًا خارجها فى نوبة الحراسة وأنا - احتياطيًا - فقد اخترت الدورة الداخلية وما هى إلا لحظات مرت حتى تناهى إلى سمعى صوت الباب وهو يفتح ولم أكن فى وضع يسمح لى بأى تصرف سريع .. يا محمود ماذا حدث ..؟ صاح من الخارج : وماذا أفعل لقد حاولت التفاهم معه فلم يستجب فقد كان يقول لى بالإشارة إن بالداخل اثنين وأنا أشير إليه أنك بالداخل .. انتهيت من أمرى على وجل وانتظرته حتى خرج.. ومن وقتها أصررنا على الإخوة بأن يستحدثوا ترباسًا صنعوه من سلك ومسمار يمسك أحياناً ويفتح أخرى ! لذا فقد كنا نختار الأوقات التى لايكون عليها ضغط من المستخدمين كأوقات الاستعداد للصلوات .

وقد ظللنا أيامًا نضحك على تلك التجارب الصعبة وكثيرًا ما كان (محمود) يدافع عن موقفه السليم بأنه حاول أن يمنعه ولكن الرجل أزاحه من طريقه وهو يشير فى عصبية (اثنان .. اثنان) ❑

ليالى ممطرة

كانت السماء تمطر فى أغلب الليالى على المنتجع ..ويصحب ذلك بردٌ يجبرنا على ارتداء أكثر ملابسنا وبما أن قدومنا كان صيفًا فلم يكن لدينا الاستعدادات المناسبة لمثل تلك الظروف .. وإن كان المطر على هذا المنتجع الجبلى يضفى عليه جاذبية أخرى إذ تسير قطرات المطر فى صفوف منحدرة من أعلاه إلى أسفله متخذة مسارات تتلألأ على ضوء الأنوار والقمر ، ويشترك معها كذلك الماء المنحدر من الجبل الذى يسير فى مساراته ..

فى إحدى الأمسيات دعانا عبد المطلب إلى حفل سمر أقامته مجموعته.. وحضر معنا أشرف ومعن وسليمان وكان السمر فى أغلبه مجموعة مسابقات تبارى فيها الشباب ، ولا تخلو من فكاهة وكان بين أولئك الشباب فتى ختم القرآن من قريب فكانوا يحترمونه .. وحدث فى إحدى تلك الألعاب أن استدعاه مقدم الفقرة ليسأله أسئلة فكاهية وبدأ بالفعل يسأله والآخر يجيب والحضور يضحكون ، وأحسست وقتها بالغيرة على القرآن فليس هذا الأخ بالشخص المناسب للعبة كهذه بل الواجب أن يعطوه قدرًا من الاحترام إجلالاً لما معه من القرآن تشاورنا سريعًا أنا ومحمود وكلمنا عبد المطلب الذى سرعان ما استدعى الحافظ على الملأ وأجلسه بجوارنا فصافحناه وطلب عبد المطلب استكمال الفقرة بآخر.

أردنا أن نضفى على الحاضرين شيئًا من البهجة فقلت لهم : ما رأيكم أن ننشد لكم نشيدًا إسلاميًا لترددوه خلفنا وتعجبوا فى أول مرة ، وتهامس بعضهم فى ابتسام وتفهمنا ذلك لكونهم لا يفهمون لغتنا فكيف سيرددون خلفنا ، قلت لعبد المطلب ترجم لهم الجزء الذى سيرددونه وسيكون يسيرًا عليهم أن يرددوه .. وقد فعل ورددنا نشيد (لبيك إسلام البطولة كلنا يفدى الحما) المشهور.. واستعذبه الشباب ورددوه ❑

تربية الرجال

جاءنا سليمان زائرًا .. ورحبنا به .. هذا الأخ كم أعتز به إنه مثال للكفاح المخلص - نحسبه كذلك إن شاء الله - فعلى كتفه تقوم تلك الدعوة المباركة بين مجموعة كبيرة من أهل تلك البلد كما أنه - كما ذكرت - شعلة نشاط وهو بشوش دائم البشر .. سألته : أين تعلمت يا سليمان ؟ قال : لقد كان هناك شيخ من علماء الدين فى بلادنا وكان يقوم على تربية مجموعة قوامها ستة من الأطفال وأنا منهم ، وظل يربينا ويوجهنا ويعلمنا العربية إلى أن كبرنا ؛ فوجه كل واحدٍ منا إلى ناحية فى البلاد لنؤدى واجب الدعوة إلى الله ، وتعجبت أنا ومحمود من هذا الجهد الدؤوب وهذا الفكر الثاقب ، لقد عمل الشيخ رحمه الله عل الحفاظ على هوية أهل البلد باختياره لهؤلاء الفرسان الستة الذين حملوا عنه ذلك العلم ونقلوه ففتح الله على أيديهم وكان الواحد منهم بأمة ، علمًا وعملاً وحملاً لهمِّ الدعوة إلى الله سبحانه ، وليتنا نعى هذا الدرس فإن العبرة بالكيف قبل الكم فهؤلاء الشباب الذين ركز الشيخ على دعوتهم استطاعوا بعد ذلك أن يؤثروا فى الناس ولعل الشيخ فى هذا الوقت لم يجد فرصة لإضافة المزيد من العمل الجماهيرى فقام بذلك الواجب وأفلح فيه بفضل الله تعالى .

ومن ناحية أخرى نلمح بركة الدعوة إلى الله ، وكيف أنها لا تموت لأن الله تعالى قد استجاب لدعوة رسول الله بألا يستأصل من الأمة بعذاب . بيد أنه يجب علينا أن نقوم بما يجب علينا والتوفيق بعد ذلك والحفظ من الله تعالى وقديمًا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا تحقرن من المعروف شيئًا) ❑

حفل الختام

تواترت أيام إقامتنا وآذنت بالرحيل ، وبالرغم من شـدة تعبنا من الإقامة وتغير مـا اعتدنا عليه من النوم والطعام ، وكـذلك بذل المجهود فى الدروس واللقاءات إلا أننا كنا نستعذب ذلك ، وما أجمله حـقيقة أن أسترجع ذكرى أيام أحسست فيها بأننى أقوم بدور هام ومـؤثر . ولعلنا ندرك أهمية استثمار المرء لطاقاته التى تعطلها كثيراً رتابة الأيام وتعوُّد التكاسل عن المهام الشاقة .

أحضر الإخوة فى الهيئة أشرف ومعن بعض الكتيبات والأشرطة وصوراً للكعبـة ولمسجد الرسـول صلى الله عليه وسلم لتوزيعـها كهـدايا فى الحفل الختـامى ، واقتطعت أنا ومـحمود جـزءاً من أموالنا لنزيد من قـيمـة الجائزة المخصصة للمعلمين لاسيما سليمـان الذى كنا نشعر بحاجته الشديدة للمال وهو المتـعـفف عن الشكوى - إذ علمنا أن مـدرسـتـه تعـانى دائمًـا من قلة الإمكانيات ، وأنه هو وفريق عمله يعملون غالبًا بما يسكن جوعتهم .

آه من الهموم التى تنزل عليك تتـرى وأنت تحس بما يعانيه الإخوة هناك وتقارن بين احتيـاجاتهم المحدودة - والتى ترهقـهم فى نفس الوقت وبين ما لدى إخـوانهم من المسلـمين في غـيـر بلادهم - لا سـيـمـا أهل الخليج كم نتحـسر على صوانى الطعـام التى تلقى فى سلال المهـملات عقب حـفلات الزواج وغيرها ، وقد يـكون الدافع لإقامتها الفخر والريـاء .. كم نتحسر إذا علمنا أن ثمن ما قـد يلقى من صينية واحـدة قد يكفى لإعالة داعـية إلى الله تعالى لمدة شهر يعان بذلك على حاجاته وعلى أداء مهمته الجليلة .

فلا غـرو بعد ذلك أن يتأخـر نصر الله للأمة . إذا كـانت على هذا النحو من التقـصير فى حقوق بـعضها وقد قـال رسول الله ﷺ : مثل المؤمنين فى

توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، بعد ذلك كانت حفلة الختام وتوزيع الجوائز وكدنا نبكى ونحن نرى التأثر على وجوه إخواننا وهم يشكروننا على كوننا شرفناهم وأنهم سعدوا بلقائنا .. وهاهو سليمان يقبلنا فى تأثر وهو يردد كلمات الشكر بعد أن تلقى هديته .. وأحسسنا بألم الفراق ونحن نلقى عليهم كلمات الوداع فى أثناء انصرافنا .. ترى هل نلتقى بعد ذلك ؟

***

شاركنا الشباب من مجموعة (عبد المطلب) العودة فى الحافلة التى أقلتنا جميعًا إلى المدينة وظلوا على استحياء يحفزوننا لنردد بعض الأناشيد لاسيما نشيد لبيك إسلام البطولة وظلوا يرددونه خلفنا وقد حفظوا شطرًا لا بأس به منه :

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدى الحمى
لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلمًا
لبيك إن عطش اللواء سكب الشباب له الدماء
لبيك لبيك لبيك
هذى الجموع غدًا سيجمع شملها فى دولتى
ولسوف ننهض كى تعيش الكرامة أمتى
ولسوف يهتف باسمه الأبطال عاشت رايتى
لبيك لبيك لبيك □

فى بشكيك

وصلنا إلى المدينة واتفقنا مع عبد المطلب على أن نلتقى فى المسجد العام يوم الجمعة إننا الآن فى (بشكيك) عاصمة قرغيزيا بلد صغير يشبه القرم فى أحجام شوارعها وتشبه كازاخستان فى أشكال الناس فيها .

نزلنا فى ضيافة الأخوين الكريمين (نضال) الفلسطينى وأبومصعب المغربى وهما يدرسان كحال أغلب الشباب هنا (فنضال) يدرس الهندسة و(أبو مصعب) يدرس العلوم ، وقد انتهى من دراسته وهو جالس ينتظر إكمال إجراءات تسلم الشهادة الجامعية

شخصان لطيفان وهادئان ، وبعد هذا التعب اللذيذ الذى مر بنا فى (أستيكانا) وجدنا أنفسنا مرة أخرى فى دعة وانتظار

كنا ننتظر أن نتوجه إلى مكتب جمعية الوقف الإسلامى التى ستقيم تجمعًا دعوياً آخر فى (آلما آتا) عاصمة كازخستان وقد ذهبنا إلى الشقة المطلوبة أكثر من مرة ولم نجد بها أحدًا

فى أثناء ذلك كنا نجالس الأخوة هنا وتدور بيننا حوارات مختلفة

قال أبو مصعب :

إن أهل المغرب قد اختلطوا ولفترة طويلة من الزمان بالحضارة الغربية لاسيما بأهل فرنسا الذين كانوا يستعمرونهم ومشكلة الاستعمار الفرنسى دائمًا . إنه استعمار يحمل معه ثقافة تحاول أن تغير من الشعوب لذا فقد تعمدوا العبث بمناهج التعليم والتاريخ خصوصًا فى محاولة لتشويه تاريخ تلك الشعوب ، ولإقناعهم أن الارتباط بفرنسا أكثر رقيًا وحضارة

قلت . لقد حكى لنا أحد العلماء - د عبد العظيم الديب - نقلاً عن

محاضر فرنسى ألقى محاضرة فى تونس إبان احتلالها من قبل الفرنسيين - وقد كان لها وقتئذ حاكم عسكرى فرنسى - قال المحاضر محاولاً التقرب إلى التونسيين لقد تعلمنا نحن منكم معاشر العرب والمسلمين الشيء الكثير، وإن الفيلسوف الفرنسى شعيب جان فرانسيس قال : إن أكبر خسارة مُنى بها الفرنسيون هو أنهم انتصروا على المسلمين فى آخر معركة دارت بينهم ، فقيل له : لماذا ؟ قال : لأنهم كانوا يحملون مشاعل العلم والحضارة وكان هذا الانتصار سببًا فى تأخر فرنسا عن ركب الحضارة الإسلامية عقوداً عدة ... وتعجبنا من ذلك التفسير ، ثم قلت وقد قال الراوى وعلى أثر المحاضرة استدعى الحاكم العسكرى ذلك المحاضر وطلب منه مغادرة تونس فوراً فتعجب الرجل وسأله لِمَ ؟ قال : نحن نريد أن نطمس هوية الشعب وأنت تريد أن تحيي فيه أننا تعلمنا منهم ؟

أضاف أبو مصعب : أن لى زوجة خال فرنسية تقيم معنا فى المغرب وتقول إنها وجدت ذاتها فى المغرب فلما سألناها كيف ؟ قالت : إن هنا أمانًا نفتقده فى بلادنا .. إن الفرق بين البلدين كالفرق بين الجنة والنار .

قال محمود : وهذا حال معظم من أقام مع المسلمين فى بلادهم وخالطوهم فلقد عرفوا تلك المخالطة شيئًا من ما يجمع بين المسلمين من التراحم ففضله العقلاء على الإقامة فى بلادهم ، قلت : سبحان الله القائل (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم . إنه عزيز حكيم) ☐

فيدنخا

ذهبنا فى نزهة مع (نضال) إلى (فيدنخا) ، نفس الاسم الذي فى موسكو فهو يطلق على الحدائق الكبيرة .

إنها حديقة كبيرة الحجم حقًا والمفروض أن بها حيوانات كما حكى لنا بيد أنا بحثنا عنها فلم نجد إلاَّ بضع غزالات وحصانين أو ثلاثة وبركة متسخة فيها بعض الأوز والبط .

كانت نزهة لطيفة استمتعنا فيها بجمال الطبيعة التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، ووقفنا معجبين بجمال شجر الأرز بلونه الأخضر المائل إلى الرمادى ، متعجبين من ارتفاع طوله ، وبعد أن قضينا وقتًا طيبًا - أنا ومحمود ونضال - انصرفنا قبيل الغروب .. إن العجائز هنا يميلون إليَّ ! لماذا ؟ لا أدرى ؛ فكثيراً ما أجد أحدهم يهمس إليّ أو يحدثنى مبتسمًا وأضطر أن أبادله بابتسامة وأنا لم أفهم شيئًا .. تصرف تلقائى وجدتنى أكرره كلما حفل أحدهم بى . إذ يكون من يتقن اللغة معنا يجلس فى مكان آخر وأستثقل أن أناديه لأسأله ماذا يقول إذ ربما يكون شيئًا تافهًا لا يستحق ، وعمومًا فقد اعتمدت هذا الأسلوب لمعالجة ذلك الموقف .. الابتسامة .. ولكم ضحكت من نفسى إذ تصورت أن يكون كلام أحدهم يحتاج إلى إجابة أخرى كأن يسألنى أحدهم مثلاً كم الساعة ؟ أو هل مرت بنا محطة كذا ؟ وتكون إجابتى بتلك الابتسامة ، أما اليوم فالحمد لله أن الرجل العجوز الذى كلمنى فعل ذلك أمام نضال فترجم لى نضال أنه يعبر عن إعجابه بشكلى وبلحيتى فأجبته بابتسامتى المعهودة قبل أن نغادر الحديقة ولم أجد وقتها فرقًا بين معرفتى لمعنى الكلام أو عدمه فالإجابة دائمًا تكون

واحدة .. الابتسامة .

وقفنا خارج الحديقة لفترة طويلة أظلمت علينا الدنيا فيها ومع الليل يصعب أن نجد سيارة تقلنا ، والأمر كما ذكرت فى بداية المذكرات أنه لا توجد سيارات أجرة فى الغالب دائمًا هى سيارات أفراد يحسنون دخلهم بالوقوف للراغبين .

البلد هنا أكثر أمانًا من موسكو وقد وقف لنا فتى وفتاة روسيان بسيارتهما وأقلانا إلى مكاننا ، وكان الفتى يسمع شريطًا غنائيًا بلغته وكان من عادتنا أن نعطى السائق شريط أناشيد أو نأمره بإطفاء شريطه ولكن نضال لم يفعل . يبدو أن الحسابات تختلف بالليل عنها بالنهار ، همس لى نضال قائلاً : إن معنى الأغنية عن امرأة تشكو هجر حبيبها لها إلى واحدة أخرى وكيف أنها اكتشفت خيانته لها ثم هى فى النهاية تطالبه بالعودة والغفران ! قلت وهكذا دائمًا اهتمامات النساء فى كل البلاد ❑

فى الشقة

لم أر فى حياتى أصغر ولا أجمل من ذلك الماء الذى فى قرغيزيا فهو ماء ينبع من الجبال وينحدر إلى البلد التى تقع تحتها ، وفوق ذلك فهو بارد فى الصنبور وأبرد من ماء الثلاجة المعتاد ، وبالرغم من استمتاعنا بمذاقه اللطيف وإعجابنا بصفائه الأخاذ ، إلا أننا كنا نعانى دائمًا من برودته إذا أراد أحدنا أن يأخذ (حمامًا) إذ يشعر بنفسه وكأنما أحاط به الثلج من كل مكان ، وقد كان السخان (معطلاً) لذا فقد كنا نسخن أحيانًا الماء إذا أردنا أن نستخدمه .

أما الطعام فقد كان الإخوة زهادًا فيه بحق ! فلا أدرى أزُهدًا كان ذاك منهم فى الدنيا أم قلة خبرة فى أعمال المطبخ ؟

فلقد عانينا - أنا ومحمود - من قلة ذات الأكل فى المكان ، وقد طال بنا المقام بانتظار لقاء جمعية الوقف فلم يكن الأمر يتعدى الجبن والبيض المسلوق فى أغلب الوجبات . فلما اعتدنا على الشابين اقترحت عليهما أن أعد لهما شيئًا مما أعرفه من الطعام ، وبالفعل قمت بطبخ مكرونة حاولت جهدى أن تكون معقولة لتتناسب مع ما أطلقته من دعاية أننى أحسن الطبخ، ولم تكن على المستوى الذى آمله ولكنها فى النهاية كانت أفضل من غيرها.

وذات مرة اشتقنا لنأكل اللحم وكان الطلب عزيزًا فلم نجد لحمًا يثق الأخوة فيه على الإطلاق ! بيد أن (نضال) قال لي : إن راعيًا للغنم يمر هنا كل يوم فإذا مر ليرعى أمام المنزل اشترينا منه خروفًا وذبحه لنا لنأكله وظللنا ننتظر من طرف خفى ظهور ذلك الراعى العزيز وقد غاب عنا أيام لم نكن

نتناول وقتها إلاَّ طعامنا المعتاد آنفًا .

والحق أن اللبن هنا – وفى أغلب تلك البلاد – لذيذ وتشعر عندما تشربه بأنك فى الريف المصرى ، وكانت تمر سيارة نقل كل يوم وتطلق بوقها ليخرج من شاء ليشترى الحليب منها وهم يضعونه فى خزان أسود على السيارة يخرج منه خرطوم يعمل بالضغط لينطلق منه الحليب وقد كان فيه بعض السلوى بانتظار الخروف العظيم .

المهم ظهر أخيراً ذلك الراعى واشترينا منه خروفًا بما يوازى ثلاثين دولاراً «ذبحه لنا فى منزله الفقير .. إنه عشة صفيح يعيش فيه هو وأبناؤه فكيف يتحملون البرد . وبدأنا مرحلة جديدة فى الطعام مع إنضاج جزء من الخروف كل يوم ❑

جولة فى السوق

السوم عـملة البلد والدولار الواحـد يساوى ١٠ سـوم وقد كنا نشـترى أحـيانًا بعض احـتيـاجاتنا أنا ومـحمـود ، وذات مرة اشـترينا (أيس كـريم) وطلب منا البـائع ثمنًا لهـا عـشـرين سومًـا وتعـجـبنا أتراه فـعل ذلك لأننا أجانب، وقد تفاهمنا معًا بالإشـارة أم لأنه النوع الذى طلبناه كان مستوردًا ، وتلك أسعار المنتجات المستوردة .

فى السـوق تبدو نفس الملاحظات التـى شاهدناها فى مـوسكو فالنسـاء العجائز يجلسن ببعض الخبز أو ببعض حـبات من الطماطم ليبيعنها وهكذا نفس الملاحظة المؤلمة الـتى تتكرر فى تلك البـلاد كأنهم اتـفقـوا على ذلك ، وهو ما يعكس حـجم المعاناة التى يعانيـها كبار السـن هنا فأين التكامل بين هؤلاء ، أين أبناؤهم مثلاً ؟ هذا لا يوجد إلاَّ فى الإسلام ❑

صحيفة الجبال الحرة

في جلستنا بالمنزل قال (نضال) : لقد أغلقت صحيفة في البلد هنا اسمها (الجبال الحرة) وعرفها الأخ أبو مصعب وتعجبت لذلك حيث أجابه نضال ونحن نسمع : لقد كانت الدولة بعد الشيوعية تبيع جزءًا من أملاكها؛ مصانع وعقارات وأراضي وشركات .. إلخ ، ومع الأسف فقد سيطر على عملية الشراء بعض أصحاب السلطة والنفوذ مما جعل من الصعب تحقيق ما يعود على البلاد بالنفع في تلك الصفقات ، وعلى ذلك فقد تصدى بعض أعضاء البرلمان لتلك الفضائح وكان من أثر ذلك أن اضطر البرلمان لإقامة لجنة تحقيق وكان صراعًا مريرًا تسربت أنباؤه إلى الجرائد حيث تبنت جريدة (الجبال الحرة) الدفاع عن الحق فاستطاع أصحاب النفوذ أن يغلقوها .

قلت : وهكذا دائمًا حلقات صراع الحق والباطل الحرب فيها سجال يغلب أهل الحق مرة ويغلبون مرة . ثم إذا صفى أهل الإيمان عن شوائب الدنيا وتجردوا لله وكان أمرهم إليه سبحانه فإنه يمكن لهم ويعينهم فليس طريق الحق مفروشًا بالورود وإنما قد يعاني المسلم في طريقه وقد لا يرى النصر ولا التمكين ، ولكن حسبه من ذلك أنه أدى ما عليه .. وأقول استدراكًا أن هذا الموقف قد ذكرني بتلك الملاحظات وإلاَّ فإنه لا ينفع الإنسان عملاً يقوم به حتى ولو كان الدفاع عن الحق .. دون نية الإخلاص لله في ذلك .

سأل أبو مصعب : ماذا تقصد ؟ قلت : إن رسول الله ﷺ يقول إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فقد يقوم البعض بشيء من أعمال الخير والبر رياءٍ ومفاخرة فينفع الله به الدين والخير وهو من كل ذلك لا ينتفع إذا

كانت نيته الظهور على الأقران أو حمية الجاهلية . قال محمود : وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة أى ذلك فى سبيل الله . قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله، قلت : وبعض الناس يخلط بين تبنى زعيم أو سياسى لموقف يكون فيه مصلحة للإسلام أو خير للمسلمين ويظن أنه بذلك قد نال رضاء الله وهو يقوم بذلك دعاية لحزبه أو لذاته فلا ينل عن ذلك ثوابًا ولا أجرًا فتخيل معى كم من الهلكى يظنون أنفسهم ناجين ... نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل .

***

باب الشقة مبطن من الداخل ببطانة من الجلد تحتها اسفنج لتكون عازلاً للبرد وكما كنا نفعل فى البلدان الأخرى التى مررنا بها هنا فقد طلب منا ألاَّ نفتح للأغراب ، وألاَّ نفتح الباب قبل أن نتأكد من هوية الطارق .

وتذكرت ما حكاه لى الأخ منير الذى كان يصحبنا فى أول الرحلة - من أن الطيب كان خارج الحجرة ومنير داخلها يأكل طعامًا فطرق الطيب الباب فأجابه منير : من . قال : أنا . ففتح له الباب ضاحكًا ، فقال الطيب بلهجته الخليجية : قلقونا وخوفونا كل شوية لا تفتحون لأحد حاسبوا .. هايموتوكوا .. ولا شوفنا شيء ثم قلد برأسه وفمه حركة المفزوع بشكل لم يتمالك منير نفسه من الضحك وهو يأكل ؛ إذ انفجر ضاحكًا بوجهه فأفرغ ما فى فمه من الطعام على ملابس الطيب وظلا يضحكان سويًا على الموقفين ؛ سخرية الطيب منهم وقيامه بحركة رأسه ، وانفجار منير بالضحك.

تذكرت ذلك وأنا أفتح الباب لأبى مصعب ثم أسأله بفتور بعد ما فتحته من ؟ دخل ضاحكًا وهو يقول : قبل ما تفتح اسأل ❑

مركز الاتصالات

خرجنا سويًا أنا ونضال لأتصل تليفونيًا من مركز اتصالات البلد ، ولم نجد ما نركبه من السيارات الخاصة فاستقللنا حافلة وكانت غير مزدحمة فى البداية ثم تحولت بعد ذلك إلى علبة سردين . قلت : سامحك الله يا نضال.. الحافلة لا تحمل أرقامًا حكومية يبدو أنها خاصة ، ومع ذلك فهى تمتلئ بالركاب ... وقفت فى تكدس مرورى وعبر الزجاج رأيت الموقف الثانى .. امرأتان تعبران الطريق .. أشكالهما صينية .. وفتى ثالث يحاول اللحاق بهما .. يبدو من هيئته أنه سكران .. ويحاول أن يحتضن إحداهما وهى تدفعه عن نفسها وقد عبرت إلى منتصف الشارع وتخشى أن تصدمها سيارة وهو لا يكف عن محاولة احتضانها وتقبيلها وهى تدفعه عنها فى كلل ، والناس فى الطريق وفى الحافلة وراكبى السيارات لا يهتمون بأمرهما ! لفت نظر نضال إليه .. فقال : إنه سكران والناس هنا تعذره ، قلت : أليس هناك من يغضب لذلك فيدفعه عنها .. قال : أبدًا .. الناس هنا لا يهتمون بذلك ... وتحركت الحافلة وأنا أتميز غيظًا وأتابعهما ببصرى قبل أن يختفيا ، ذهبنا إلى مركز الاتصالات فأعطينا عاملة التليفونات مبلغًا تحت الحساب وأجريت اتصالاً بموسكو لأستفسر عن خطوتنا القادمة هل سنعود بعد (ألما آتا) أم ماذا سنفعل ؟ ولكن لم أجد من أسأله ، وأجريت اتصالاً آخر بالأهل لأطمئن عليهم وقد تعودوا على أنى لا أتصل بهم من تلك البلاد إذ ليس يسيرًا عليَّ أن أجد مركزًا أستطيع الاتصال منه .. وبعد أن أجرينا الاتصال وقد أخذ نضال المال ليدفع الحساب ، انتظرته بالخارج ، وطال انتظارى ، وبالخارج كانت هناك نافورة متوسطة الحجم عميقة نوعًا ما

وقد استفاد بعض الفتيان منها باستخدامها كحمام سباحة شعبى يقفزون من حوافـها لداخلها ، وهـم يرتدون مـا تيسر من الأردية الداخلـية والبنطلونات ويصيـحون فى مرح .. وبعـد قليل خرج نضـال غاضبًـا لقد غالطتـه عاملة التليفون في الحساب واستطاعت أن تجبـره أن يدفع أكثر من التعريفة المقررة ولم ينتبه لذلك إلاَّ بعد انصرافه من الشباك فلما عاد إليها أنكرت أنها فعلت ذلك .

قلت متهكمًا : أبدًا إنها تحسن دخلها ! ❑

مصعد

بالعمارة التى نسكن بها مصعد لا بأس به وإن كان يذكرنى بما كان يحكيه لنا الإخوة .. منير والطيب والقحطانى عندما كانوا فى (ليننجراد) وكان المصعد تفوح منه رائحة كريهة .. علموا فيما بعد أنها بسبب الأفعال غير اللائقة للكلاب . إذ تعود بعضهم على قضاء حاجته فى المصعد فازداد اشمئزاز منير من ذلك حتى إنه قد كان يكتم نفسه إذا دخل المصعد ويظل لا يتنفس حتى يصعد به إلى طابقه .. وكنت أمازحه لقد كان اختبارًا طويلاً لطول نفسك .. إذ كان يصعد إلى الدور العاشر ولولا ارتفاع الطابق لما قبل أصلاً أن يركب مصعدًا كهذا ..

أما مصعدنا فلم يكن يعكر صفوه شيء إلاَّ شعورك بأنه قديم كقدم الشيوعية ، وقريبًا من بابه ذات مرة كان يقف فتى وفتاة - فى الشارع - ونحن نمر أمامهما وهما لا يهتمان بذلك ويقبلان بعضهما فى هيام سخيف.

قلت لنضال : هل مثل هذه الصورة منتشرة هنا ؟ قال : إنهم يقلدون الأفلام بعد الانفتاح . فى طريقنا ذات صباح استوقفنا رجل فى الأربعينيات من عمره - أو هكذا قدرت أنا سنه - وشكله صينى ورحب بنا بلغة عربية سليمة ، وسألته عن اسمه ؟ قال : منصور ، قال : هل تعرف من أين أنا ؟ قلت : لا .. قال : من كردستان الشرقية .. نعم إنها البلد المظلومة ، وأشار عبر الجبال المحيطة بنا .. إنه هناك ، وتذكرت ذلك البلد المسلم الذى وقع بين استعمارين لدودين .. استعمار الصين واستعمار روسيا كل بفكره الرافض للإسلام ولنا أن نتخيل المذابح التى حدثت والاضطهاد الذى لاقاه إخواننا هناك والذى سجله الروائى الأستاذ نجيب الكيلانى فى رواية (ليالى

تركستان) هممت أن أدعوه إلى بيتنا ليجلس إلينا بدلاً من الوقوف فى الشارع ، وأحسست أن (نضالاً) لا يرحب بذلك من طرف خفى فقلت له باسمى أتمنى أن أقابلك فى المسجد .. قال : نعم نعم وانصرف مبتسمًا وانصرفت مع نضال محرجًا .. كيف لم يرحب باستقباله وما المانع من ذلك. وصارحته بما يجول بخاطرى فقال : معقبًا نحن لا نعرفه ولا نأمن فى تلك البلاد أن نتساهل مع الأغراب ولا أن ندخلهم إلى بيوتنا وشعرت بالملل من ذلك الحذر حتى متى نظل فى ذلك الشعور .. لا نفتح لأحد لا نتعرف على أحد.. ما أيسر العيش فى بلاد المسلمين .. نعمة الأمن نعمة عظيمة هنالك تستطيع أن تمشى فى الطريق وأن تدعو الغرباء إلى منزلك وأن تفتح الشباك وألا تخشى أن يقفز إليك منه أحد ❑

في مسجد بشكيك

جاء يوم الجمعة .. سنذهب اليوم إلى الصلاة فى المسجد كم هو لطيف أن نذهب إلى المسجد فنحن لم نصل فيه إلاَّ مرة واحدة منذ أن حللنا في (بشكيك) إذ صلينا فيه صلاة المغرب ذات يوم ونحن نمر على مقر مؤسسة الوقف ، واستمتعنا بالوضوء فى (ميضته الكبيرة) .. إن بناء المسجد قديم وبجواره وعلى مساحة كبيرة يقف مبنى آخر لم يكتمل لتوسعته فيبدو أنه سيكون مركزاً إسلامياً كبيراً .. وبعد الصلاة تعرفنا على بعض الموظفين وحملناهم سلامنا للشيخ (عبد المجيد) إمام المسجد الذى التقيناه فى (اسيكاتا) ولم يكن موجوداً وقتها .

ووقف معنا أحد الموظفين فيه يرحب بنا ويدعونا إلى حجرته ، شكرناه وانصرفنا ، وحدثنا نضال فيما بعد عن المشاكل التى تعرض لها موضوع التوسعة فهو الآن متوقف بسبب قلة الدعم فالمؤسسات الخيرية التى تدعمه تشك فى المفتى الذى يقوم عليه أنه يستولى على الأموال لنفسه وهو أهل لأن يشك فيه . إذ أن هذه التوسعة تكلفت أكثر بكثير من النفقات المعتادة على مثل هذا البناء . فأوقفت الجمعيات الخيرية دعمها له وهو يرفض أن يقوموا هم بإتمام البناء بأنفسهم بل يريد أن يمدوه بالمال ليقوم هو بالإشراف على البناء . كانت تلك هى الخلفية التى أعرفها عن المسجد قبل ذهابى إليه يوم الجمعة بصحبة الأخوة .. وذهبنا وهناك قابلنا الأخ عبد المطلب ورحب بنا ورحبنا به ووعدناه بزيارة لقريته فى الغد .

كان هناك احتفال قبل صلاة الجمعة وسألنا عن السبب فقيل لنا إنه احتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وجلسنا فى المسجد معهم بانتظار

انتهائهم من الاحتفال ونحن لا نقدر أن نتكلم في بدعية الاحتفال مراعاة لحال غربتنا ولقوة من يتبنى الأمر ، ووقف الشيخ عبد المجيد على المنبر ، وتلى بعض القصائد بالتركية والعربية وأظنه قرأ كذلك القصيدة المسماه بنهج البردة على ما فيها من المنكرات العقيدية

ثم فوجئنا أن الناس جميعًا بالمسجد يقفون في لحظة معينة من قراءته وكذلك فعل (عبد المطلب) وسألناه عن ذلك ؟ قال : إنهم يقولون إن روح الرسول ﷺ تنزل في ذلك المكان لذا فهم يقفون احترامًا لها

ظللت على جلستي في تحد صامت لمن حولي من الوقوف وقد رمقوني بأبصارهم ولسان حالهم يقولُ لم لا تنهض مثلنا سبحان الله كم يضل الشيطان الناس .. كيف يقولون على الله ورسوله وما لهم بذلك من علم . ويزعمون أن روح رسول الله تحضر إليهم وبأى مناسبة في مناسباتهم البدعية تلك .

استمر الاحتفال قرابة الساعة ثم أذن للجمعة فكانت الخطبة لا تتجاوز العشر دقائق !

ثم جمعنا عبد المطلب بأستاذه الذى علمه ورحب بنا وأكد على دعوتنا لقريتهم ، ووعدناه بذلك في الغد . وبعد ذلك جاء المفتى ورحب بنا في اقتضاب وظل يحدثنا عن شكواه من الجمعيات العربية وكيف أنهم لا خير فيهم وأنهم يعطلون إكمال المبنى . استمعنا إليه في حيرة .. الله أعلم بالأمر وإن كنا قد تعلمنا من قبل في تلك البلاد وبأن ليس كل ما يقال هو كل الحقيقة ❑

إلى قرية واستشنى

ذهبنا فى الصباح لنوفى بوعدنا ولنذهب إلى قرية واستشنى مسقط رأس عبد المطلب وكنا سنركب حافلة تقلنا إلى هناك . وانتظرنا فى موقف الحافلات . موقف صغير ليس به مكان للجلوس ، وطال بنا الوقوف وهو مزدحم وبين حين وحين آخر تطل سيارة يتدافع الناس إليها ليفلح البعض فى الركوب ويتخلف آخرون ، فالمفترض أن الموقف هنا تتجه منه السيارات إلى أماكن مختلفة ومع ذلك ليس هناك أى تنظيم لعملية الوقوف أو تحديد لأماكن انتظار كل قرية ، أو حتى تمييز السيارات بأى إشارة بدلاً من ترك الأمر هكذا بدون أى نظام .

كلنا نتخيل أن هناك مواعيداً معرفوة للسيارات التى تتحرك إلى القرى ، ولكن يبدو أن هذا أيضاً ليس بصحيح كما أنه لا يوجد مسئول يرجع إليه فى مثل تلك الأمور بعد طول انتظار قررنا أن نتمشى قليلاً فقد كان بالمكان سوق . اقترحنا أن نمضى بعض الوقت فيه لحين وصول السيارة بدلاً من الوقوف فى مكان الانتظار المزدحم . السوق أشبه بأسواق الخضار الضيقة بكل معنى الكلمة وهو مزدحم أيضاً بالمتجولين لدرجة الاختناق أحياناً ، وفى نفس الوقت فإن البضائع المعروضة لا يوجد فيها ما يمت بصلة للطعام وإنما كلها من المستوردات .. ملابس وأحذية وأجهزة وكلها تباع على عربات الخضار (وفرش) شبيه تماماً بتلك الموجودة فى الأسواق الشعبية .

البائعون هنا يعملون بأمان أكثر . بعد أن تجولنا فى هذا السوق العجيب وتوقفنا بسبب الاختناقات المرورية ، اكتشفنا أن أكثر الناس هنا يتفرج فقط بمعنى أن دخول هذا السوق هو أقرب للتسلية منه للشراء وإن كانت

حركة البيع لا بأس بها لاسيما أن التجار هنا محترفون ولديهم إمكانيات مادية تساعدهم على تنويع البضائع قليلاً إذ سبق فأشرت إلى أنه قد يوجد فى كل محل كبير بعض الأجهزة والملابس التى لا توضع فى بضع أرفف عند أحد التجار فى أى بلد آخر وإنما المقارنة هنا بين أولئك التجار فى ذلك السوق وبين تجار الأرصفة الذين يجلس أحدهم بشيء بسيط كبعض علب الكبريت مثلاً لبيعها ثم ينصرف .. الناس هنا مولعون بالملابس الغربية وأكثر ما يباع لهم فى تلك البلاد هى تلك الملابس ، والغريب أن الشباب هنا يهتمون بالملابس ولو على حساب الطعام وقد يكتفون بشريحة خبز أضافوا إليها قليلاً من الزبد والملح صباحًا ومساءً فى حين أنهم يلبسون أفضل الملابس ويشترونها بأغلى الأسعار ، وأنوه هنا بما ذكرته آنفًا من الفرق بين الشباب والعجائز الذين لايزالوا يحتفظون بملابسهم التقليدية التى ورثوها من الشيوعية .

عدنا بعد ذلك إلى موقف السيارات لنركب .. لم نجد السيارة ولم يخبرنا أحد إن كانت قد جاءت أم لا .. ولكن تردد خبر أنه إذا لم تأت فى غضون نصف ساعة فلن تأتى وانتظرنا أكثر من ذلك فلم تحضر السيارة فانصرفنا آسفين ❑

غروب وهموم

عند غـروب الشمس يبـدو الأفق البعـيد رائع الجمـال وقد لاحت على البعد جبالاً تغرب الشـمس من ورائها والصورة تزداد بهاءً وروعة إذ تصبغ الشمس باللون البـرتقالى وتضفى ظلالاً غامـضة على ما تحتـها ، وأنا أتأمل الغروب من أمـام الجبل الذى كنا نسـير بالسيـارة باتجاهه وهو يقف شامـخًا بالأفق بلونه الرمـادى وقمتـه البيضـاء والتى كنت أظن أن بياضـها ناتج من ثلج لايزال بها لم يذب ، ولكنهـا ليسـت كذلك إنما هذا البـياض فى قمتـها لون فيها فما أبدع خلق الله سبحانه وتعالى .

ذهبنا إلى مكتب الوقف كما كنا نفعل كل يوم تقريبًا وكنا قد قابلنا هناك أحد الشـباب ، استـقبلنا وللحق بفـتور أصابنا بالإحـباط - أنا ومحـمود - ولكنه على العـموم أخبـرنا بموعد وجـود المدير الإقليمى ، وهو أخ كـويتى فاضل التقـينا به وأخبرنا أنه مع الأسف الشـديد فإنه بسبب عدم التـقائنا قد فاتنا مـوعد المخيم المقام فـى (كزاخسـتـان) وتضايقنا إذ فاتتنا تلك الفـرصة لاسيما ونحن قد رأينا فى البلاد الأخرى أهـمية مثل تلك المخيمات ، ولكن قدّر الله وماشاء فعل وانصرفنا بعد ذلك وقد أخذنا قرارًا أن نتصل بموسكو لنسأل هل من خطوة جديدة .

وفى الطريق رشحت للأخوة شريطًا به أناشيـد كان الأخ عمر الليبى فى القـرم قد أهداه لـى فأدرناه بالسـيـارة حتى لا يـشغل قـائدها مـا يؤذينا من الأغـانى وكان به نشيدٌ تأملت فى مـعـانيه فـذكرنى بمن سـبقنا من الإخـوة والأحـباب على الدرب فـمنهم من قـضى نحبـه إنهـا قصـيدة رائعـة تلاها منشدها بصوت مؤثر وحسن أداء وهى تتحدث عن صديق يرثى صديقًا له.

تقول القصيدة :

هل ترانا نلتقى أم أنها كانت اللقيا على أرض السراب
ثم ولت وتلاشى ظلها واستحالت ذكريات للعذاب
هكذا يسأل قلب كلما طالت الأيام من بعد الغياب
فإذا طيفك يرنو باسمًا وكأنى فى استماع للجواب
أو لم نمضى على الحق معًا كى يعود الخير للأرض اليباب
فمضينا فى طريق شائك نتخلى فيه عن كل الرغاب
ودفنا الشوق فى أعماقنا ومضينا فى رضاء واحتساب
قد تعاهدنا على السير معًا ثم تعاجلت مجيبًا للذهاب

وكأن صاحبه يجيب عليه فى غيبته فيقول :

حين نادانى رب منعم لحياة فى جنان ورحاب
ولقاء فى نعيم دائم بجنود الله مرحى بالصحاب
قدموا الأرواح والعمر فدىً مستجبين على غير ارتياب
فليعد قلبك من غفلاته فلقاء الخلد فى تلك الرحاب

ويعود الأول فيجيب :

أيها الراحل عذرًا فى شكاتى فإلى طيفك أنات عتابى
قد تركتَ القلب يدمى مثقلاً تائهًا فى الليل فى عمق الضباب
وإذا أطوى وحيدًا حائرًا أقطع الدرب طويلاً فى اكتئاب
وإذ الليل خضم موحش تتلاقى فيه أمواج العذاب
لم يعد يبرق فى ليلى سنا قد توارت كل أنوار الشهاب
غير أنى سوف أمضى مثلما كنتَ تلقانى فى وجه الصعاب
سوف يمضى الرأس مرفوعًا فلا يرتضى ضعفًا بقول أو جواب

تنهدت فى أسى وقد تأثرت بالكلمات الصادقة واغرورقت عيناي بالدموع وأنا أتذكر صديقًا عزيزًا سبقنى إلى الآخرة ❑

مركز الاتصالات مرة أخرى

أجمل مكان فى البلد - حسبما رأيت - هو ذلك المكان الذى فيه مركز الاتصالات ولولا الذكرى المزعجة التى مرت بنا - أنا ونضال - يوم أن غافلته - عاملة الاتصالات - فأخذت أكثر من حقها لكنت أغريته بالذهاب مرارًا إلى هناك إذ أننى أحب أن أجرى اتصالاً بأهلى بين حين وآخر ، كلما كان ذلك ممكنًا . ففى الأماكن البعيدة يصعب الاتصال رضوخًا للظروف التى تجبرنى على ذلك .

وكانت خطوتنا التالية هى الاتصال بموسكو وبعد عدة محاولات فاشلة لعدة أيام كنت خلالها سعيداً بالذهاب للمركز ورؤية الأشجار الباسقة من حول ملتقى الشوارع المطلة عليه فقد تمكنا أخيرًا من التحدث إلى الأخ منير الذى وعدنا بسؤال هيئة الإغاثة إن كان لديهم مشروعات دعوية أو مخيمات يمكن أن نشارك فيها .

وأعدنا الاتصال مرة أخرى ، وكانت الإجابة أن هناك مخيمًا دعويًا مقامًا فى إحدى القرى القريبة بيد أنكم لن تتمكنوا من اللحاق به فقد قارب على الانتهاء ، أما إذا أردتم العودة والانتظار فالأمر إليكم فى ذلك .

تشاورت أنا ومحمد ورأينا أن العودة إلى موسكو والانتظار لن يكون له كثير طائل إذ الشتاء على الأبواب ، وقد يطرقنا البرد فى خلال أيام وقد بدت بوادره فى موسكو على الأقل وفى الشتاء تتوقف تلك الأعمال الدعوية من إقامة مخيمات أو دورات إذ ينشغل الجميع بالعمل والدراسة وتغرب الشمس فى الثالثة أو حولها ويطول الليل والبرد فيجبر الناس على لزوم البيوت لذا لم نجد بدًا من اتخاذ قرار الرجوع إلى الدوحة ❑

العودة

هكذا قاربت الرحلة على الانتهاء وجاء قرار العودة وظننا فى أول الأمر أن باستطاعتنا فى خلال يوم أو يومين أن نعود إلى الدوحة أو حتى إلى الإمارات ومنها إلى الدوحة .

ولكن أنَّى لنا على حدود الصين أن يكون الأمر يسيراً هكذا .. تلك البلاد التى دخلت فى الإسلام فى زمن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إذ دخل قتيبة إلى طلاس القريبة من طشقند بأوزبكستان ثم انطلق منها إلى غيرها والتى دخلها قتيبة بن مسلم رحمه الله فاتح تلك البلاد ، ترى كم تعبوا حتى بلغوا ذلك المكان ناشرين لدين الله محتسبين جهدهم وتعبهم وقتالهم وغربتهم ، كم جاهدوا وكم نقصر وتلهينا الدنيا بمشاغلها عن القيام بواجب الدعوة ، مجرد دعوة الناس رغم أمن افتقده الصحابة ، ويسر فى الانتقال وغير ذلك من الأمور التى حرمهم الله منها ، كم نبدو أقزامًا إذا قارنا أنفسنا بهم ...

لم يكن يسيرًا أن نجد حجزنا على رحلات العودة ، أو بمعنى آخر لم تكن هناك رحلات تابعة لشركة طيران يمكن أن ننزل عليها وكان الحل إذن هو أن نبحث عن رحلة سياحية من نوع تلك السياحة التسويقية التى يقوم بها التجار هنا إذ تؤجر إحدى الشركات طائرة لمدة أسبوع تنقل خلالها تجار الشنط الذين سبق وصفهم - إلى أى بلد يتسوقون فيه ثم تعود بهم آخر المطاف مرة أخرى .

وبالفعل وجد (أبو مصعب) إعلانًا عن إحدى تلك الرحلات فاتصل بها وحجز لنا عليها ، وكان السفر بعد يومين وأعددنا عدتنا للسفر وحضَّرنا

شنطنا واستكملنا بعض الهدايا كان منها بعض مشغولات يدوية خشبية لزينة النساء ؛ اشتريت بعضها من بشكيك وقبل السفر بيوم اتصلنا بهم لنتأكد من موعد الإقلاع فقالوا لنا : إن الرحلة تأجلت أسبوعًا كاملاً . يا إلهى أسبوع آخر من الانتظار ..

كم هو ممل أن تجلس فى مكان ما لا لشيء إلاَّ لأنك لا تجد ما يقلّك إلى بلدك ، ولكن ما باليد حيلة ..

برزت لنا مشكلة جديدة استهلكت بعض من أيام الانتظار وكنت قد لفت النظر إليها عبر صفحات المذكرات وهو أننا لا نحمل تأشيرة دخول إلى تلك البلاد ، وعلى ذلك فإقامتنا فى نظر القانون غير شرعية ودخولنا كذلك ، فيا ترى هل سيؤثر ذلك على عملية خروجنا .

تشاورنا واستقر رأينا على أن يحاول الشباب إنهاء الموضوع داخل الجوازات ، وذهب نضال إلى هناك وقابل أحد المسئولين والذى زعم له بدوره أن الأمر خطير ولابد من حله . وما الحل إذن ؟ مائة دولار وينتهى كل شيء .

وهكذا انتهت الأيام السبعة وركبنا سيارة خاصة ودعنا عندها (أبو مصعب) وتركنا (بشكيك) بجبالها الرائعة ومياهها الصافية لنذهب إلى المطار مع نضال ❑

نضال أيها الصديق

كم هو لطيف ذلك الشاب (نضال) اسم على مسمى ولئن كان قصير القامة بادى النحافة إلاَّ أن له نفسًا عالية وهمة كبيرة .

وهاهو يتجه معنا إلى المطار بُعيد صلاة الفجر وقد آل على نفسه ألاَّ يتركنا حتى تتحرك الطائرة ... أنهينا إجراءات الخروج وختم لنا ضابط الجوازات أختام الخروج .. ودخل معنا نضال إلى صالة الإقلاع وقد استأذن فى ذلك متعللاً بأننا لا نحسن اللغة ، وحسنًا فعل فقد فوجئنا بعد دخولنا بصالة تفتيش طولبنا فيها بتفتيش أمتعتنا واستغربنا ذلك أولسنا سنخرج من البلد ؟ فقال نضال : إنها فى الغالب حجة لدفع بعض الرشاوى .

موظف التفتيش آسر إلى نضال بأن ما نحمله ممنوع !؟ ولم نكن نحمل بالطبع إلاَّ بعض الهدايا التذكارية .. كمثل ما ذكرت .. اشتريناها عبر الرحلة .. بعض أشغال يدوية لبراويز وبعض التحف الخشبية وساعة ! فما الممنوع من ذلك ؟!

فقال الموظف : إن خروج أى من إنتاجات البلد ممنوع وبالطبع لا فائدة من إقناعه إننا تقريبًا لم نشتر شيئًا من بلدهم .

قال نضال : ألم أقل لكم عشرة دولارات وننهى كل شيء ..

وظللنا نعلق أنا ومحمود ؛ فأين تشجيع السياحة ؟ وأين حسن المعاملة للغرباء لينقلوا صورة طيبة عن بلادهم ؟!

لكم هى بعيدة تلك البلاد عن إدراك كل ذلك .. وهاهى البقايا العرجاء للشيوعية تأبى إلاَّ أن تودعنا فى أخلاق الناس وانتهازيتهم وفى القوانين الحمقاء التى تمنع أن يصطحب الزائر بعض ما يذكره بالبلد .

انتهى كل ذلك ودخلنا إلى صالة صغيرة تطل على أرض المطار وقد قامت الشركة بتسليم أمتعتنا لشحنها إلى الطائرة كالمعتاد

وودعنا نضال وظل واقفًا لفترة ثم أشرنا له من بعيد أن انصرف فما هى إلاّ دقائق لنركب الطائرة .. وغاب نضال عن عيوننا ومرت الدقائق إلى قرب ساعة وفتح باب الخروج إلى أرض المطار . ولكن هل خرجنا منه؟

أبدًا .. لقد اكتشف مسئولو الرحلة فى آخر لحظة .. ولعل أشكالنا العربية التى لفتت نظرهم إلينا . أننا لسنا منضمين إلى تلك الرحلة وأن رحلتنا تأجلت إلى الظهر .. عجبًا كيف تسلموا التذاكر منا إذن ؟ وكيف شحنوا أمتعتنا معهم ؟ .. خرجنا مرة أخرى إلى صالة التفتيش . أمامنا ثلاث ساعات تقريبًا .. سنمضيها جالسين انتظارًا لإعادة الكرّة مرة أخرى .

والمفاجأة السعيدة أننا وجدنا نضالاً ينتظرنا .. ألم أقل لكم .. لقد أبى الفتى أن ينصرف قبل أن يطمئن على صعودنا الطائرة فانتظر كل هذا الوقت.

كم جميل أن تجد صديقًا يهتم بشأنك . مرت الساعات الثلاث ودخلنا مرة أخرى ، وكما توقع نضال فقد أعادت الموظفة - موظفة التفتيش - الروسية الأصل نفس الادعاء بأن ما نحمله ممنوع وطالبت بكل وقاحة بإعطاءها مائة دولار . وتضايقنا من إصرارها ، وأصررت بالمقابل ألاّ ندفع لها شيئًا .. ورفع نضال صوته معترضًا على أسلوبها وجميع من بالصالة يسمعنا وهى تفاصل معنا فيما يجب أن ندفعه مقابل السماح لنا بالانصراف.. منتهى التبجح ، وما حلت المشكلة إلا بتدخل رئيسها المباشر إذ سألنا هل دفعتم لزميلها السابق ؟ قلنا نعم . فاتصل تليفونيًا به ، وكانت الوردية قد تغيرت - وعاد فقال لها إن زميلها سيعطيها شيئًا

بضـيق وحـقـد نركـتنا ننصـرف ثم علـقت قـبل أن ندخل إلى الصـالة الصغـيرة يا ليتكم تأخذوننا مـعكم ' واستغربنا من طـلبها لاسيمـا بعد تلك المشـاجرة ، ودعنا نـضال بحـرارة وركبنا الـطائرة وصوتهـا يرن فى أذنى.. ترى هل كانت تعبر عن نفسها فقط بمقولتها تلك ؟ ❑

طائرة عرجاء

لم تكن الطائرة تختلف كثيراً عن مثيلتها التى ركبناها يوم قدومنا .. نفس القدم ، لا يوجد بها أحزمة أمان ، لا توجد كراس لها أرقام .. إنها سيارة قديمة لها جناحان وتطير ، وقد زاد من استغرابنا منها أنه لم يقدم لنا فيها وجبة طعام .

لم يطل تحليقنا فى الهواء حتى تعرضنا لموجة من المطبات الهوائية ، اهتزت الطائرة لها اهتزازًا عنيفًا وأحسسنا كأنها تسقط من شاهق ، وفزع الركاب .. يا لها من نهاية .. وتشهدتُ فى سرعة حتى لا أنقل توجسى لمحمود ومع طول وقت الاهتزازات تعودنا عليه ، وقمت أتمشى فى السيارة - أقصد الطائرة - أول مرة أشاهد طائرة بابها مفتوح وهى تحلق .. إننا سنهبط وقفت بجوار الباب مع بعض الفضوليين من أمثالى أطالع فى حذر عملية الهبوط ، ونزلت الطائرة بالفعل فى أقرب مطار .. إن بها عطلاً .. ولله الحمد أنها لم تسقط .. وجلسنا فترة من الوقت ننتظر حتى عدنا إلى الإقلاع مرة أخرى .

نزلنا بعد أربع ساعات من الطيران إلى مدينة العين .. وموعد الطائرة إلى الدوحة بعد يومين كيف سنتصرف .. اكتشفنا أنه يحق لنا دخول البلد لأن الرحلة كلها مسموح لها بالدخول وبالفعل قررنا ذلك ، وجمعوا منا الجوازات ثم تسهيلاً علينا فى الدخول سمحوا لنا أن ننصرف فى سيارة الرحلة وبالفعل ركبنا معهم السيارة ثم انصرفنا لشأننا فى دبى ، وعدنا بعد يومين لنسأل على الجوازات وما أن دخلنا إلى الفندق حتى وجدنا جميع من كانوا معنا على الطائرة ينظرون إلينا باستغراب ، وجاءت مسئولة لهم

تخاطبنا بلهجة لم تعجبنا .. واتضح فى النهاية أنهم ظنوا أننا تسللنا إلى البلد .. لماذا ؟ أبداً لأنه مسموح للروس أن يدخلوها بتأشيرة يحصلون عليها من المطار أما نحن فلابد لنا أن نحصل على تأشيرة مسبقة ، ولما كنا قد انصرفنا فقد حملت سلطات المطار - التى اكتشفت جنسياتنا من الجوازات - مسئولى الرحلة المسئولية عن هروبنا ، واضطررنا أن نذهب إلى العين لنسوى الموضوع مع الجوازات هناك ، ومُنحنا تأشيرة دخول لتسوية الموضوع بعدما كادوا يعممون على الشرطة بدخولنا . أخيراً عدنا إلى بلد من بلاد المسلمين وها نحن نصلى الصلوات الخمس فى المساجد ، كم هو جميل أن تدخل إلى المسجد بعد حرمانك منه ، بل كم هو جميل أن تشاهد النساء المحجبات بعد طول عهد بالعرى ❑

إلى الدوحة أخيرًا

توجهنا إلى المطار والعجيب أننا لم نجد حجزاً على الطائرة المتجهة إلى الدوحة واضطررنا أن نعدل التذكرة إلى درجة رجال الأعمال بعد أن كادت الطائرة تفوتنا .. ولك أن تتخيل الفارق بين تلك الطائرة لاسيما فى درجة رجال الأعمال وما ركبناه هناك ، وجاءت المضيفة وهى تحمل صينية عليها فطائر ملفوفة .. قلت هكذا يستقبلوننا بالطعام من البداية وابتسمت فى سعادة ، أخيراً سنعامل معاملة مختلفة ، وسألتنى المضيفة : هوت أور كولد، همست لمحمود : فرق كبير .. وقلت : هوت .. فأمسكت (ماشة) التقطت بها الفطيرة من على الصينية وأعطتنى إياها فى يدى .. ما هذا إنها ليست فطيرة .. إنها منشفة ملفوفة لأمسح العرق عن رأسى ؛ ومسحت العرق وكل شيء آخر عني وأنا أتبادل الضحك مع محمود ❑

وبعد

ألا ليت شعرى ، أترانى تحدثت فى تلك المذكرات بعمل أحتسب أجره على الله فأصبح كالمجاهر بالصدقة أو المرائى بها .. أعوذ بالله من ذلك وأسأل الله أن يتقبل منى وأن يغفر لى .

اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، فقد أردت والله أعلم أن أنقل صورة حية صادقة لتلك الرحلة .

تذكرة لنفسى ، وعسى أن يستفيد منها مستفيد ..

فرُب سامع أوعى من مبلغ ..

لرُبَّ متذبذب فى إيمانه يجد فيها هاديًا للإيمان فى مقارنة واقعية بحال أمة الإسلام وغيرها من الأمم .

مقارنة بين فكر كان لابد أن ينهار لأنه قام على محادة الله خالق الكون ومدبر أمره ، وقامت على أكتافه دولة تحميه .

امتصت خيرات الشعوب لصالح أفراد أو جماعات محظوظة داخل الدولة ، إنها الرأسمالية المقنعة التى تلهى الشعوب بشبهات لا تثبت لمسحة عقل أو تدبر ولكن القوم لا يعقلون .

والسعيد من وعظ بغيره ، ومن يدرى ، فلربما تشهد انهيارا آخر للرأسمالية الحديثة التى تحمل فى طياتها عوامل انهيارها من ظلم وتفرقة عنصرية خفية واستئثار بمآثر العلم وفوائده لصالح أهوائها فالدور المقبل عليها - بلا شك - إن شاء الله ..

ولكن هل سنعيش لنشهد ذلك .. الله أعلم .



من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أمانى فهمى
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى
مطربة الغروب	جمال الغيطانى
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع فى الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيرى عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نعم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
المور للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدى صَح	د. عزة عزت

العنوان	المؤلف
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إيكارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
حبرات النوبة	قاسم مسعد عليوة
حب وطلال	كوثر عبد الدايم
ترالريت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخزانة 2000	محمد الشرقاوى
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
تسبيح الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى حوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
ديا تناديا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر، النجوم، العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لمندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألمة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النعم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان ...	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
النقد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربى فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الذات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

.. التفتُّ إليه وأنا أحدثه .. فلم أجده
بجواري .. فظللت أنظر إلى مكانه فلم أجده فقد
حال بيننا مرور مجموعة من المسافرين .. مرت
دقائق وأنا أتفرس وجوه المارة لعلي أعثر عليه
فلم أجد له أثراً وبدأ القلق يتسرب إلى نفسي
فأنا في هذه البلاد غريب بكل معاني الغربة ..
لا أعرف لغة أتفاهم بها ولا أثق في الناس من
حولي حتى إنني لا أعرف صفة أو اسم الشارع
ولا الحي الذي هو فيه .. فلم يخطر ببالي أن
يحدث ذلك لي، ثم فوق ذلك فإننا في المساء وما
قبيل شق الظلام في هذه البلاد كثير ..

